روايات عبير



مارجري هيلتون

غفرتُ لكِ!



روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 107

غفرت لك!

الاخلاص فضيلة كالذهب، نبحث عنها ونادراً نجدها. ولكن الاخلاص ايضاً بوصلة عمياء وسط البحار قد تقود صاحبها الى شواطىء غير مرغوب فيها، كأية فضيلة اخرى يساء فهمها.

كارين رادكليف تفاجأ بعودة زوجها آرثر من جنوبي اميركا بعد غياب وانفصال طويلين. يغير حياتها رأساً على عقب بشخصيته الحازمة المسيطرة، واعتياده على القاء الأوامر.

ذات ليلة تكتشف من حديث آرثر ومحاولته مغازلتها، انه ما زال يكن لها رغبة دفينة كانت تظنها ماتت الى الأبد. ولكن لوحة الشك بألوانها السوداء ما زالت تقف بينها كالقدر، تحيل حياتها الى اكذوبة كبيرة. فهل تستمر هذه الأكذوبة حتى النهاية... ام تجد البوصلة مرفأها المنشود، وتقودها الى شاطىء الأمان اخيراً؟

١ - عودة المتاعب

يجب ان اراك . . .

راحت كارين رادكليف تحملق في البطاقة التي كانت كلماتها تتردد في راسها بلا انقطاع، وانصرفت عن كل ما ألفته من حولها في شقتها الصغيرة، ولم تعد تشعر الا بالصدمة التي انتابتها وبالبطاقة البيضاء التي دفعت من تحت بابها تنتظر عودتها من جولتها السريعة في السوق التي لم تستغرق اكثر من نصف ساعة، لا بد انه جاء اثناء ذلك. لقد عاد آرثر وكان هنا!

غاصت كارين باعياء في اقرب مقعد، وارتجفت ساقاها ويداها فجأة حتى كادت البطاقة تسقط من بين أصابعها الواهنة. فماذا يريد؟ ولماذا؟ بعد كل هذا الوقت الذي قارب السنتين من الصمت.

قرأت الجمل الثلاث الموجزة: يجب ان أراك. من الواجب ان تتصل بي خلال الأربع والعشرين ساعة المقبلة. «فيستا» (عيد) حلبة الرقص الشعبي حتى الساعة التاسعة، وبعدها الى البيت: آرثر.

كان الالحاح المتنامي جليا في هذه الجمل، فتملكها الغضب.

تلك كانت طبيعة آرثر. لا كلمة رجاء في تلك الاسطر السوداء الصارمة، ولا حتى الكلمة التقليدية «من فضلك». مجرد استدعاء متعجرف. عاد الى البيت بعد سنتين، بعد كل ما حدث متوقعا ان يجدها مستعدة لأن تهرع لتلبية دعوته.

انتصبت كارين واقفة تتجلى في عينيها القساوة. عليها ان تتجاهل هذه الدعوة وتمزق البطاقة. مشت الى النافذة واخذت تحملق في الحديقة المكسوة بالغبار وقصاصات الشاش حيث الأطفال يتدافعون ويتعاركون أثناء لعبهم، وفجأة فطنت الى انها كانت تعبث بخاتم زواجها.

وراحت ترتعش من جديد، ليس من الصدمة أو الغضب، ولكن من الخوف. فهل كانت هذه الدعوة تعني ان آرثر غيّر رأيه وقرر ان ينشد حريته على الرغم من كل الايمان التي اقسمها؟ هل التقى بامرأة اخرى؟

فجأة طرق الباب فاستدارت كارين بجفلة، وتدفق الدم عنيفا في عروقها. هل هو آرثر؟ هل عاد؟ ووجدت نفسها عاجزة عن الوصول الى الباب، وطرق الباب ثانية، ثم سمعت صوتا مألوفا يقول متبرّما:

«هل انت هنا سيدة رادكليف؟ انني وحدي على الباب».

أسرعت كارين الى الباب وفتحته للمرأة السمراء ذات الوجه النحيل التي كانت تقف في الخارج. نظرت السيدة بيجنز الى كارين وقالت:

«عرفت انك رجعت يا عزيزتي، فأردت ان اعلمك ان زائرا حضر اثناء غيابك».

«أعلم ذلك».

وابقت كارين يدها على الباب دون ان تفسح مجالا لدخول جارتها، فلو فعلت لما خرجت من عندها قبل ساعة.

«هل ترك رسالة؟»

«أظن ذلك، قال انه من الضروري ان يراك. يا له من رجل فائق الوسامة».

ولمعت عينا السيدة بيجنز ووكزت بمرفقها ذراع كارين.

«جسيم، أسمر ووسيم، له نظرة تجعل المرأة تشعر بالرغبة الى...» ووكزتها ثانية: «انت تعرفين!»

لم تبتسم كارين واكتفت بأن هزت رأسها قليلا. كانت اعرف النساء بما لنظرة عيني آرثر من تأثير، ولكنها احست بشيء من الاشمئزاز وهي تسمع السيدة بيجنز تصف نظرته بتلك التلميحات الخبيثة. وتنهدت السيدة بيجنز بعد ان فشلت مداعباتها بأن تثير لدى الفتاة الشاحبة المتوترة أية استجابة ثم أردفت:

«من المؤسف ان افتقدته طيلة هذه المدة. دعوته ان ينتظرك عندي لكنه اعتذر. لا بأس ما دام قد ترك لك رسالة تحت الباب».

فأجابتها كارين ببرود:

«أشكرك سيدة بيجنز على مجيئك لاعلامي، وعلى دعوتك اياه للانتظار عندك. اسمحي لي الآن فأمامي عمل كثير».

خطت خطوة الى الوراء وبدأت باغلاق الباب، فتراجعت السيدة بيجنز ومعالم الحيرة تبدو على وجهها. أغلقت كارين الباب وهي تتمنى - وليس للمرة الاولى - لو انها افلحت في ايجاد سكن لها في أي مكان آخر غير شقتها هذه لدى السيدة بيجنز. صحيح ان الشقة الصغيرة كانت مقبولة، وأجرتها في حدود الميزانية وصاحبتها على قدر كاف من الطيبة، الا انها كانت فضولية الى حد لا يطاق، تراقب حركاتها وسكناتها وتسجل عليها بعين الريبة الزيارات القليلة التي كان يقوم بها بعض معارفها لها. ومع هذا فانها تعرف ان من يبحث في لندن عن مكان يعيش فيه كمن ينقب عن الذهب في الأرصفة، لذلك اعتبرت نفسها محظوظة أن وجدت لها ملاذا في منزل السيدة بيجنز على ما هو عليه من مظهر وضيع وطلاء مشوه.

ولم يكن خارج المنزل افضل مظهرا من داخله، حيث كان ولدا السيدة بيجنز الشديدا الصخب يتعاركان ويتشاجران معظم الوقت. ولكن كارين كان باستطاعتها ان تغلق بابها بوجه الضجيج ورائحة السمك والبطاطس المقلية التي كانت تنبعث من الاسفل. وكانت تعتبر نفسها محظوظة أيضا لكونها تسكن على مقربة من طريق النفق الارضية التي كانت تصلها بمقر عملها في المدينة، حيث بدأت تعيد بناء حياتها من جديد، بعد ان مرت بأعصب تجربة في سنواتها الاثنتين والعشرين.

أخذت كارين تعد وجبة طعامها، يساورها شيء من القلق وهي تحاول ان تجد تفسيرا لتلك البطاقة الصغيرة البيضاء، التي بدت وكأنها تملأ أرجاء الشقة كلها. فماذا تعني عودة زوجها بعد غيبته

الطويلة؟ ليس هنالك الا جواب وحيد على سؤالها، هو انه التقى بامرأة اخرى. ان السنتين اللتين امضاهما بعيدا كافيتان ولا شك لأن يلتقي بالكثير من النساء، حتى ولو انه امضى الجزء الاكبر من هاتين السنتين في جنوب اميركا. فلكم كانت النساء تتجمع حوله كتجمع الفراشات حول اللهب.

أطبقت كارين قبضتها تحاول جاهدة اقصاء شجونها القديمة التي ظنت انها تغلبت عليها، على الرغم من وعيد زوجها وقسمه انه سيضع كل العراقيل في طريق استعادة حريتها. ولكن اذا كان قد بدل رأيه وعزم على ان يطلقها ويمنحها حريتها فلماذا يجشم نفسه عناء الحضور للاتصال بها؟ أليس بامكانه تكليف احد المحامين للقيام بالاجراءات القانونية اللازمة؟ بالتأكيد انه لم يأت لمجرد ان يلقي بتلك البطاقة الجافة من تحت الباب.

بدأت كارين بتناول طعامها، ولكنها لم تستطع، فدفعت الطبق بعيدا، وحتى الشاي سيخنقها لو تناولت منه جرعة واحدة. ماذا عليها ان تفعل الآن؟

طال بها الجلوس الى المائدة. ومشاعرها تتخبط في داخلها كالأرجوحة المجنونة. ستكون احمق من حمقاء لو انها فكرت في رؤية آرثر ثانية، فذلك يعني ان تحرك السكين في جرح أوشك أن يندمل. لو كان يريد منها ان توقع على اية وثيقة لامكنه ذلك عن طريق شخص ثالث. فلماذا جاء بنفسه ليقابلها؟ هل يتوقع منها ان تعرض نفسها للمذلة من جديد؟ كلا لن تراه. بمقدورها ان تكتب له رسالة باردة قاسية كتلك التي كتبها لها عندما أسدل الستار على مشكلتها المخيفة، تلك الرسالة التي يعلمها فيها انه هيأ لها نفقة يدفعها لها اثناء غيابه. يمكنها اعلامه انه يستطيع الاتصال بها عن طريق محاميها العجوز السيد كولنز، الذي أدار شؤون والدها مدة طويلة، فهو لا شك سيهتم بالأمر. ما عنوانه يا ترى...؟

أسرعت الى صندوق صغير حيث كان والدها يحتفظ ببعض

أوراقه، لعلها تجد فيه ذلك العنوان. فوقع نظرها على بعض الصور القديمة الباهتة، صور لها ولأمها وللبيت القديم في كانتربري حيث عاشت طفولتها الهانئة التي لا رياء فيها، عندما كان آرثر وليزا وفينس كاين بعيدين عن المستقبل المحجوب خلف سحابة لم تكن ملامحها قد تبدت بعد في أفق الأيام.

أحست بوخز الدموع في عينيها فدفعتها بانفعال، لقد بكت ما فيه الكفاية من اجل آرثر، ولن تسمح لدموعها ان تنساب ثانية مهما حدث.

تابعت البحث عن العنوان ولكن دون جدوى، فقررت الذهاب في اليوم التالي الى دائرة البريد لتبحث عنه في دليل الهاتف.

وقع نظرها ثانية على البطاقة البيضاء، فصبّت على آرثر اللعنات. لماذا لم يوضح سبب مجيئه؟ لماذا عاد ثانية ليظهر في حياتها؟ ولتقابله في الفيستا بالذات؟ وبدت عيناها هذه المرة خاليتين من أي أثر لدموع الذكريات. الفيستا، المكان الذي يرتاده عشاق الرقص الشعبي، المكان الذي اخذها اليه آرثر في موعد لقائهما الاول، ذلك اللقاء الذي ما كاد ينقضي عليه شهر واحد حتى انقلب واقع دنياها الى دنيا العجائب حين طلب منها الزواج. والآن فانه يتوقع منها ان تقابله في ذلك المكان نفسه، ليبحث معها الفصل الاخير لقصة بدأت هناك في تلك الأمسيات الساحرة الفاتنة...

أمسكت كارين بالبطاقة البيضاء، ومزقتها إربا، ثم حملت حقيبتها ومعطفها وخرجت تسير في الليل. امضت ساعة ونصف في احدى دور السينما، ثم عادت الى شقتها بعد التاسعة بقليل. نسيت كل ما شاهدته في جولتها، ولكنها شعرت بشيء من الراحة لأنها تمكنت من ان تتحداه.

لم تجد بطاقة تحت الباب هذه المرة، ولم تهرع اليها صاحبة البيت تحمل لها بعض الانباء، فأرسلت تنهيدة ضعيفة. لم تكن تتوقع ان يعود آرثر، وبهذا الشكل المفاجىء. أرخت كارين الستائر وقد

استولى عليها احساس بالوحدة. اخذت تشعر ببعض الاعياء وهي تقوم بترتيب ما يلزم للمحافظة على اناقة الشقة، وبعدها احست بحاجتها الى حمام، فحملت ما يلزمها من ثياب ولم تنس ان تضع حذاءها بالقرب من الباب ومفتاح الشقة في حقيبتها الاسفنجية. ثم أطفأت النور وأغلقت الباب خلفها وعبرت الممر. هبطت درجات السلم الثلاث الى غرفة الحمام، وهناك أسلمت نفسها باسترخاء تام للماء المنعش الدافىء. مكثت ساعة وخرجت بعدها لتجد الدار تقبع في ظلمة دامسة. لم تعجب لذلك فلا شك ان احدهم قد اطفأ نور الممر. كانت قد ألفت مسالك المنزل فلم تجد صعوبة في تلمس طريقها، فتصعد الدرجات الثلاث وتعبر الممر الى باب شقتها. تريثت هناك قليلا لتنشر المنشفة ثم ادارت المقبض واخذت تدفع الباب، واذ بها تندفع خطوة حذرة الى الوراء وتجمد في مكانها. وجدت الشقة مضاءة وهي التي اطفأت النور بنفسها، ولم تجد أثرا للحذاء الذي تركته قرب الباب.

بدأ قلب كارين يخفق بشدة من الخوف. فهل اقتحم احد المتطفلين شقتها؟ كلا، لا يمكن لأي متطفل ان يدخل الدار دون ان تلحظه عين السيدة بيجنز الحادة.

دفعت الباب ببطء ونظرت الى الداخل، كانت الغرفة خالية وبدا كل شيء كما تركته تماما ساعة خروجها. ألقت نظرة خوف باتجاه الستائر المسدلة على النوافذ، فلم تر قدمي رجل يختبىء خلفها.

دخلت كارين مترددة الى وسط الغرفة مستعدة للهرب فورا اذا لزم الامر، واستبدت بها الحيرة عندما وجدت حذاءها ملقى على بعد اقدام من الباب. تساءلت هل هي قطة؟ لكن السيدة بيجنز لا تقتني قططا في منزلها. وفجأة سمعت صوت حركة من داخل غرفة النوم التي رأت بابها مفتوحا على مصراعيه، فقفزت الى الخلف وقد انطلقت من فمها صرخة فزع واصطدمت بأحد المقاعد، وامتدت يدها الى عنقها من الخوف عندما شاهدت جسما طويلا يسد باب

الغرفة. كان يقف هناك ينظر اليها. انبعثت من فمها كلمة مخنوقة:

أنت!

تقدم آرثر بخطوات ثابتة الى الأمام كما لو ان له الحق في وجوده هناك وقال:

«نعم انا، هل اخفتك؟»

«كيف تجرأت على دخول منزلي كما لو انك...؟

«وجدت الباب مفتوحا».

قال ذلك واتجه نحو باب الشقة ودفعه بيده فأغلقه. فاستدارت كارين صائحة:

«ماذا تفعل؟»

«أغلقت الباب».

وقف امامها، يداه في جيبي معطفه والتحدي ظاهر على كل عضلة من عضلات جسمه. وقال:

«عرفت انك لن تحضري فحضرت انا».

تلعثمت كارين وهي تصيح:

«هل كنت تتوقع حقا ان اركض تلبية لدعوتك؟ يا للوقاحة!»

تجلت ابتسامة مرح ساخرة على فم آرثر وقال:

«أراك لازلت تتلعثمين. فأنت بعد كما عهدتك لم تتغيري».

فثارت صائحة:

«وانت أيضا لم تتغير، متعجرف وبغيض كما كنت. ما أشد غبائي، لا ادري كيف وقعت في حب واحد مثلك. انك...».

فقاطعها ببرود:

«دعينا من الحب الآن، فلم احضر الليلة لنبدأ قصتنا السابقة من جديد. لقد استغفلتني مرة، وثقي أنني لن ادعك تعيدين ذلك مرة اخرى».

اشتعلت عينا كارين غضبا وصاحت:

«اخرج من هنا. فليس لدي ما أقوله لك».

«لكن لدي الكثير لأقوله لك، ولن اخرج من هنا قبل ان اقول كل شيء».

كان الغضب البارد جليا في عينيه، فارتجفت كارين وهي تصيح:

«اذن قله بسرعة وانصرف! لم تكن بحاجة للمجيء الى هنا الليلة كي تطلب الطلاق. عرضت عليك ذلك منذ سنتين عندما أوضحت لي بأنك تكرهني».

فضم فمه بمرارة وقال:

«أتظنين ان هذا هو سبب مجيئي الليلة؟ يا لك من خسيسة».

أسرعت كارين الى الباب وأمسكت بمقبضه وصرخت:

«هل هذا ما جئت تقوله لي؟ حسنا فقد قلته، هل اكتفيت؟»

وفتحت الباب بعنف ووقفت تنتظره ليخرج. ولكنه وقف مكانه دون ان يتحرك. اصطدمت نظراته المريرة بنظراتها، وأطبق فمه بقوة محاولا ان يكظم غيظه، ثم تحرك ببطء عبر الغرفة وقال:

«لم احضر هنا من اجلنا نحن، ولكن من اجل اليزابيت»

حدقت كارين في وجهه وقد ظهر عليها الخوف:

«اليزابيت؟ ماذا حدث؟ هل اصابها مكروه؟»

«انها مريضة».

«آسفة لسماع ذلك. هل الأمر خطير؟»

«انها على ابواب الموت».

أغلقت كارين عينيها تحاول ألا تصدق ما سمعت. اليزابيت تلك المرأة اللطيفة، المرأة الكريمة التي احبتها بمقدار حبها لأمها خلال الأشهر القليلة التي عرفتها فيها. المرأة التي يدين لها آرثر بالكثير، المرأة التي اقسمت اكثر من مرة بأن آرثر على استعداد لأن يضحي بكل ما يملك ليجلب لكارين السعادة والهناء. كلا، لا يمكن ان يكون ذلك صحيحا. نظرت الى آرثر فرأت معالم الألم المبرح على وجهه تكاد تهزم رباطة جأشه، فتأكدت من صدق الأمر.

سألت كارين بصوت منخفض:

«ماذا حدث؟ متى علمت؟»

«عندما عدت البارحة».

وارتفعت كتفاه وهو يتابع:

«هل لديك شيء للشرب يا كاري؟»

ناداها باسم التدليل الذي اعتاد ان يناديها به من قبل دون ان ينتبه لذلك. فهزت رأسها بأسى وأسرعت الى الخزانة حيث تحتفظ ببعض الشراب وقالت:

«ليس لدي الا شراب الكرز، تفضل».

واقترب منها ليتناول الكأس من يدها وسألها:

«وأنت، ألا تشربين؟»

«كلا شكراً».

أحست بقربه الشديد منها، وفطنت فجأة انها ترتدي الثوب الذي اعتادت ان ترتديه عند خروجها من الحمام. فشدته عليها واحكمت حزامه ثم تابعت كلامها:

«أفضل ان اتناول الكاكاو مع قطعة من البسكويت قبل ان آوي الى السرير. ولكن دعنا من هذا يا آرثر وحدثني عن اليزابيت».

جلس على احد المقاعد وقال متجهما:

«لا أعلم الكثير عن مرضها، اذ لم التق بأحد اطمئن منه عليها. ألم تشاهديها انت؟»

فأجابت بمرارة:

«كلا! بالطبع لم أرها. ألم نتفق بأنه من الافضل ان نتركها تعتقد... ولكني لا أدري لماذا اتفقنا على ذلك، فانها سوف تعلم ما حدث بيننا عاجلا أم آجلا».

«كلا يجب الا تعلم، ليس الآن اطلاقا. اذا سولت لك نفسك ان تنكثي بالعهد...»

كان التهديد جليّاً في لهجته. فأشاحت بوجهها عنه كي لا يرى الألم والمرارة في عينيها، وقالت بصوت حاولت ان يكون هادئا:

«اليزابيت لن تعرف الحقيقة مني أبدا. لكني اود زيارتها، اشتقت اليها كثيرا».

نظر اليها بازدراء وقال:

«هل حقا ما تقولين؟ فاجأني قولك هذا. فات الأوان ولا حاجة لاظهار عواطفك».

انتفضت كارين ورفعت رأسها بكبرياء وصاحت:

«اسمع يا آرثر، لا أنوي ان نبدأ الاتهامات القديمة التي لا طائل منها من جديد. صدقني اني لشديدة الاسف لسماع خبر مرضها، واذا كان بمقدوري ان افعل شيئا، فما عليك الا أن تسأل. ولكن ـ »

فقاطعها بحدة:

«بالتأكيد يوجد ما يمكنك فعله، ولسوف تفعلينه ولو مرة واحدة في حياتك الطافحة بالأنانية والغرور».

فانفجرت صائحة:

«كيف تجرؤ! أظن انه من الافضل لك ان تنصرف قبل ـ »

وتوقفت فجأة عندما اطبق بيديه على كتفيها. واجفلت متألمة اذ احست بأصابعه تنغرس في بشرتها الناعمة، وانبعثت منها صرخة خافتة عندما حدقت في عينيه الملتهبتين ثم افلتت منه مبتعدة.

سقطت يداه الى جانبيه ولاح الشحوب على وجهه. وفارقها خوفها عندما لمحت حزنه العميق خلف ثورته العارمة.

قال لها بعد لحظة صمت:

«جئت أطلب هدنة ولكني أرى أني لم احسن صنعا».

«هدنة! ماذا تعني يا آرثر»

أجاب من غير ان ينظر اليها:

«يجدر بي ان اشرح لك بعض الأمور. قبل بضعة اشهر كتبت الي اليزابيت تعلمني بأنها باتت تشعر ببعض التعب، وعزمت على قضاء عطلة طويلة عند عائلة ميتشلز ـ لا أظن انك التقيت بهما ـ وهما صديقان قديمان لاليزابيت استقرا في ماربيلا بعد تقاعدهما، ويملكان

دارا هناك. ثم بعثت الي برسالة ثانية تعلمني فيها بأنها سافرت الى صديقيها، وهي تتوقع منا ان نعود قريبا الى البيت لأنها في غاية الشوق لرؤيتنا».

ازدردت كارين لعابها بجهد. اذن فقد كتم آرثر الأمر كما وعد ان يفعل طيلة السنتين اللتين امضاهما في أميركا الجنوبية، تاركا اليزابيت تعتقد بأن الامور بينهما على ما يرام وأن كارين مع زوجها هناك...

وتأوه آرثر قائلا:

«يا الله. كنت على حق، كان يجب ان تخبرها الحقيقة في حينها. لا شك كانت ستتألم كثيرا وينتابها غم قاتل، لقد احبتك وكنت شغلها الشاغل يا كارين، ومع ذلك فانها كانت ستجتاز الصدمة مع الايام، اما الآن فقد فات الأوان».

تنهدت كارين وظلت صامتة. هناك حقيقة لا مفر من ان تبينها لآرثر، لكن الفرصة لم تكن مناسبة لتواجهه بها الآن، وهي ان خداع اليزابيت كانت فكرته هو وفكرته وحده. لأنه يدرك تماما لو انها علمت حقيقة ما حصل بينهما لحاولت بكل الوسائل التي تملكها ان تسوي الخلاف بين الرجل الذي تعتبره بمثابة ولدها، وبين الفتاة التي اختارها عروسا له.

ارتعدت كارين من جراء ما راودها من أفكار، وايقنت ان آرثر على صواب بسفره البعيد، لأنه لو لم يفعل لعلمت اليزابيت بالحقيقة. لا شك ان في معرفة الحقيقة تحررا من الوهم، ولكن فيها ايضا كثير من الحزن والاسى... كلا، الافضل الا تظهر الحقيقة، لقد اختار آرثر السبيل الاكثر حكمة، مع ان تلك السبيل لم تجلب لنفس كارين شيئا من الراحة.

وتنهدت ثانية وقالت بهدوء:

«نعم فات الأوان، أظن ذلك، مسكينة اليزابيت!»

رفع آرثر رأسه بحدة ولمع التصميم في عينيه وهو يقول:

«ولكن لم يفت الاوان بعد لأن نجعل ايامها المتبقية سعيدة قدر

المستطاع».

وخزتها كلماته التي تحمل معنى الاتهام وقالت:

«بالطبع لا! وبالنسبة لي، اذا كان هناك شيء بمقدوري ان افعله لاجلها فعليك ان تسألني اياه. بحق السماء يا آرثر الا تصدقني؟ صحيح انني لم اعرف اليزابيت مدة طويلة، ولكنها كسبت احترامي في المدة الوجيزة التي عرفتها بها، واصبحت احبها حبا جما، وما حصل بيننا لم ولن يؤثر ابدا في مدى احترامي وحبي لها».

هب آرثر من مقعده متجهما، واتجه نحوها وعيناه لا تتحولان عن وجهها. ووقف امامها وقال:

«حسنا هذا ييسر السبيل امامي لاقول ما يجب ان اقوله».

انتظرت كارين حازمة امرها ألا تذعن لوعيده، وان تصمد بعناد امام ألاعيبه القديمة التي لا يزال يتقنها لاستثارة العواطف. واخيرا قال:

«جرى بيني وبين اليزابيت حديث طويل بعد ظهر اليوم. أبدت لي رغبتها بالعودة الى دلرسيك مسقط راسها الذي أمضت فيه معظم حياتها الزوجية كما تعرفين. وبعد وفاة زوجها العم جيمس أذعنت لضغط العائلة وانتقلت جنوبا حيث اشترت لها شقة في كراتن بليس.

ليتنا تركناها تعيش حسب رغبتها في دلرسيك. لكن ليزا كانت بعيدة عنها بحكم عملها، وكان يستحيل عليّ بسبب التزاماتي الكثيرة ان اعيش في دلرسيك، بالاضافة الى ان البيت كان كبيرا جدا، موحشا جدا، مليئا بالذكريات، مما يجعلها لا تحتمل العيش فيه بمفردها بصحبة الخدم فقط. لكني اتساءل، هل كانت اليزابيت مع ذلك سعيدة راضية بحياتها بعيدا عن دلرسيك؟ لا أظن ذلك».

«لكنك اجّرت البيت، هل بعته؟»

«كلا لم أترك اليزابيت تبيعه. لقد اجرناه فعلا. لكن المستأجرين اخلوه منذ بضعة اشهر. سأتوجه الى دلرسيك غدا لاجراء

الاصلاحات اللازمة للبيت، وآمل ان آخذ اليزابيت اليه في الاسبوع المقبل».

طأطأت كارين رأسها. آرثر لم يتغير، فاذا عزم على أمر فانه لا يتوانى عن انجازه ولا يسمح لأحد ان يقف في طريقه. ترى هل يعود ذلك الى كونه تحول من غلام فقير قدم من احدى مدن الشمال، الى رئيس شركة هندسية ضخمة لها فروع في جميع انحاء العالم؟

انفرجت اسارير كارين وهي تنظر الى آرثر. كانت عادلة بتقييمها لسلوكه من غير ان تسمح لمشكلتها الشخصية معه ان تحرفها عن ذلك. لقد احبته بسبب اخلاصه المتفاني للمرأة التي منحته الفرصة ليحقق طموحاته. وقالت برقة:

«لقد سرّني ما تقول، واعتقد ان ما تنوي عمله سيجعل اليزابيت في منتهى السعادة».

«نعم، ما عدا أمر واحد».

كانت لهجته تعبّر عن معنى واضح، فالتقطت أنفاسها وهي تقول:

«وما هو هذا الامر؟»

«عائلتها ـ أولئك الذين تحبهم».

ابتلعت كارين لعابها وقالت:

«أليس ذلك طبيعيا؟ أتريدني ان اذهب لزيارتها؟»

«أريد اكثر من ذلك يا كارين».

«ماذا تعني؟»

«أريدك ان تبقي معي في دلرسيك، ما دامت اليزابيت بحاجة الينا».

حملقت فيه لحظة ثم قالت:

«طبعا سأذهب معك لرؤيتها، ولكن لا استطيع البقاء طويلا يا آرثر. يمكنني التغيب عن وظيفتي هنا، سأطلب اجازة بضعة ايام ولربما».

وتوقفت عن الكلام عندما رأته يهز رأسه قائلا:

«انك لست معي يا كارين، أو انك تتعمدين الا تفهميني».

انفرجت شفتاها فزعا عندما أدركت ما يريده منها وتمتمت:

«كلا يا آرثر! إنك لا تعني ـ».

فقال بصرامة:

«بل أعني انك ستأتين معي الى دلرسبك كزوجتي».

«كلا كلا! لا أستطيع بعد ما ـ».

«بل تستطيعين وسوف تفعلين».

وأمسكها من كتفيها بقوة وأجبرها ان تنظر في عينيه الثائرتين وأردف:

«سوف تأتين الى دلرسبك وتمثلين دور الزوجة المحبة وكأن شيئا لم يحدث بيننا. ستمثلين هذا الدور ما دمت أرى ذلك ضروريا».

تراجعت الى الخلف محاولة التملص من يديه، وصاحت:

«لا يمكن ان تكون جادا! هل تظن ان بامكاني تجاهل المرارة التي عانيتها، كأن شيئا لم يحدث؟»

فشد على كتفيها بقسوة وقال:

«لم اكن في أي يوم مضى اكثر جدية مما انا عليه الآن. ولا تحاولي اقناعي بأن النساء لا يمكنهن الخداع عندما يحلو لهن ذلك. اسمعي يا كارين، اذا رفضت فلن تتركي امامي الا خيارا واحدا، وهو ان اخبر اليزابيت بالحقيقة كاملة. نعم، الحقيقة عن زوجتي البريئة الصغيرة وفينس كاين! فماذا تظنين سيكون وقع ذلك على اليزابيت؟»

ابيض وجه كارين من الهلع.

«لا. لا يمكنك ان تكون قاسيا الى هذا الحد. انك لا تدري ما تقوله. انك ـ».

وراحت تحاول التخلص من أصابعه الجارحة ودموع الألم تنبع من عينيها:

«دعني! انك تؤذيني!»

فدفعها عنها بازدراء:

«انك تستحقين اكثر من هذا. لا! بالله عليك لا تبكي».

أمسكت بأحد المقاعد لتمنع نفسها من السقوط، وأخذت بأصابعها المضطربة تعبث بشعرها، ثم تمالكت نفسها وهمست قائلة:

«حسنا، لقد انتصرت. لكن يجب ان تمنحني بضعة ايام لأرتب اموري وأحصل على اجازة».

«مسألة بسيطة. سأرتب الامر بنفسي».

فقالت بمرارة:

«ولكن تذكر بأنني يجب ان اعيش في المستقبل، وأنا احب وظيفتي. ورئيس عملي السيد دراموند رجل طيب القلب أرتاح للعمل عنده».

فرمقها بحدة وصاح:

«بحق السماء، ما حاجتك للعمل؟ ألا تكفيك النفقة التي خصصتها لمعيشتك؟»

أجابته بأنفة:

«لم امد يدي الى شيء من نفقتك، ولن افعل ذلك ابدا».

عقد حاجبيه ثم هز كتفيه كأن الأمر لا يعنيه ونظر الى ساعته وهو يقول:

«اتفقنا اذن، سأتصل بك خلال يوم أو يومين حالما انهي بعض اموري».

استدار متجها نحو الباب ثم توقف والتفت اليها:

«ان الأمر يهمني كثيرا... شكرا».

مد يده اليها ليصافحها ولكنها وقفت مكانها جامدة لا تحرك ساكنا، فتنهد وأرخى يده وتحرك ببطء نحو الباب.

في تلك اللحظة فقط قرأت كارين في وجهه علامات لم تلحظها من قبل ـ تلهّف فقد احتراسه، وأمل طال ارتقابه ـ اتخذت خطوة الى

الأمام ولكنها جاءت متأخرة. كان قد أغلق الباب بهدوء تاركا وراءه صدى كلماته الاخيرة.

غاصت كارين في احد المقاعد وعقدت ذراعيها واخذ جسدها يرتعش، أحست بالبرودة تسري في أوصالها، وودت لو تلعن آرثر لوقاحته وظلمه وقسوة مطلبه. لقد اعترف اخيرا انه من الافضل لو علمت اليزابيث بالحقيقة منذ حدوثها، فذلك خير من اللجوء الى هذه الخديعة. كل ذلك بسبب حقده الشخصي عليها وادانته العنيفة لها، ولأنه كان على يقين بأن اليزابيث لو علمت بالأمر في حينه لاقامت الدنيا وأقعدتها لتسوية الخلاف بينهما. ولذلك لم يفعل هذا بل اكتفى بأن اتصل بها هاتفيا قبل ان يغادر البلاد الى ريودي جانيرو. ولكن ماذا ترجّى من هربه الطويل؟ هل كان يعتقد بأن مدة السنتين كفيلة بأن تجعل وقع النبأ اخفّ على اليزابيث؟

نهضت من مقعدها وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا. مهما كانت طبيعة مشاعرها فانها لا يمكن ان تحس نحوه بالعداوة في هذه اللحظة، خاصة وانها ادركت انه يعاني اشد حالات الاسى. ولكن ماذا بمقدورها ان تفعل ليهدأ روعه؟

ومرة اخرى أخذت كارين ترتعش عندما بدأ يبزغ في مخيلتها ما يمكن ان ينجم عن لقائها بآرثر في هذه الليلة. كيف يمكنها ان تتغلب على ما سوف يواجهها في المستقبل عند عودتها للحياة مع آرثر؟ الحياة تحت سقف واحد مع رجل يحتقرها، وفي الوقت ذاته حقيقة انها لا زالت تحبه بغض النظر عن كل شيء، وتعيش الكذبة الكبرى مع اليزابيث...

٢ ـ الصفعة . . .

لأول مرة خلال ستة أشهر وصلت كارين الى عملها صبيحة اليوم التالي متأخرة عشرين دقيقة. لأنها عندما استيقظت في الصباح مرتبكة على غير عادتها، ارتدت ثيابها وأخذت تعد افطارها ساهمة تفكر في أحداث الليلة السابقة، فتناثر رذاذ الحليب على ثوبها مما اضطرها الى تبديله. وعندما خرجت من منزلها وجدت ان القطار قد فاتها، فاضطرت ان تقطع المسافة التي تفصلها عن مقر عملها سيرا على الاقدام.

خرجت من باب المصعد مرهقة متقطعة الانفاس، وعندما وصلت الباب الزجاجي لغرفة السيد دراموند، كادت تصطدم بمديرها الذي كان يخرج من غرفته في تلك اللحظة. اعتذرت له واعتذر لها، ثم تراجع الى الوراء وقال:

«كنت اتساءل ماذا حدث فأنا...»

فقاطعته:

«نعم، لقد تأخرت... اني في غاية الأسف».

فابتسم ابتسامته اللطيفة المعهودة وقال:

«لا بأس، انك نادرا ما تتأخرين، ولن احاسبك على هذا التأخير بسبب ما حدث».

حملقت كارين بمديرها الذي تابع حديثه:

«اني آسف جدا آنسة رادكليف لسماعي خبر مرض احد افراد عائلتك فأنا...» قطع حديثه عندما رن جرس الهاتف، فأشار لكارين ان تجلس ورفع السماعة. جلست كارين على طرف المقعد قلقة اثناء المكالمة تسائل نفسها، ترى هل اتصل آرثر بمديرها؟ لا يمكن ان يكون هناك جواب آخر، فكيف عرف اذن بنبأ مرض احد

افراد العائلة؟ آرثر لم يضع الوقت سدى كما يبدو. . .

انهى السيد دراموند مكالمته ونظر اليها. كان يبدو على وجهه الشاحب أثر الخيبة. وظهر ذلك جليا في لهجته عندما قال:

«فهمت الآن بأنك تحتاجين الى اجازة مفتوحة».

صمتت كارين مترددة بين اخلاصها لمديرها الذي يقدر ظروف موظفيه، وبين طلبات آرثر التي لا تراعي مصلحة احد، ثم قالت:

«هل من الممكن. . . أعني اريد ان اقسم وقتي بين عملي هنا وبين. . .»

قاطعها السيد دراموند:

«كلا، كيف يمكنك في وقت واحد ان توفقي بين عملك هنا وبين اعتنائك بصحة المرأة المريضة؟ كلا، خذي اجازتك، وتأكدي انك ستجدين وظيفتك بانتظارك عندما تشعرين بأنك اصبحت حرة مرة ثانية. لقد كنت موظفة شديدة التفاني في عملك سيدة رادكليف».

وانحنى قليلا يستمع الى آيات الشكر التي قدمتها له ثم سأل:

«ولكن لماذا لم تطلبي مني هذا الطلب شخصيا وانا كما تعرفين لا أضع حاجزا بيني وبين الموظفين؟»

عضت كارين شفتها حنقا على آرثر وتدخله السريع بشؤونها وقالت:

«كنت سأطلب ذلك بنفسي ولكني لم اسمع النبأ الا الليلة الماضية».

نظر اليها نظرة متفحصة وقال:

«ان لك بنادق قوية تقاتل من اجلك. لم اكن اعرف ابدا انك تحظين باهتمام رادكليف أو على الاقل بان لك صلة بالعائلة».

فأجابت متلعثمة وقد صعد الدم الى خديها:

«أوه. . . لم يخطر ببالي ان اذكر ذلك».

فابتسم قائلا:

«بالطبع لا، فالمسألة شخصية بحتة. حسنا يمكنك الذهاب. غريبة هذه الايام كيف اصبح المرض فيها يفاجىء الناس دون مقدمات! دعينا نسمع اخبارك دائما».

«طبعا سأفعل، وشكرا على تفهمك لوضعي».

أدركت انها قد تركت عملها الآن، ارادت ذلك أو لم ترد. استدارت وخرجت من مكتب السيد دراموند، ولأول مرة في حياتها شعرت بأنها باتت مسلوبة الارادة، غير مخيرة بما تعمل. قال لها آرثر انه سيتصل بها وأعرب عن رغبته في السفر ذلك اليوم، ولهذا فمن الارجح ان لا تراه مدة يومين على الاقل. اذن كان من الافضل لو بقيت في عملها حتى يحين موعد سفرها الى دلرسيك الذي قد يتأخر بضعة ايام اخرى.

وقفت خارج باب المدير تفكر في الرجوع اليه، طالبة البقاء حتى يوم سفرها. وكانت على وشك ان تفعل عندما سمعت صوتا يناديها، ورأت فتاة المكتب تسرع نحوها قائلة:

«حسبتك انصرفت! اليك هذه الرسالة، تركها احدهم قبل دقائق معدودة».

دفعت الصبية الصغيرة قطعة ورق في يد كارين وتابعت قولها:

«أصحيح يا كارين، انك ستتركين؟»

اكتفت كارين بأن هزت رأسها، وراحت تحملق في السطر الوحيد:

«اتصلي بي هاتفيا قبل العاشرة والنصف صباحا».

رسالة بلا توقيع، ولكن ما الحاجة الى التوقيع؟

وتابعت الفتاة كلامها:

«لشد ما أنا آسفة، سنفتقدك حتما، هل استطيع ان اقدم لك اية خدمة؟»

شكرتها كارين ودفعت الورقة في جيبها ثم ودعتها وأسرعت باتجاه المصعد. كانت ترغب بالفرار من المكتب قبل ان يعرج اليها بقية الموظفين الذين ولا شك علموا بتركها العمل الآن، وينهالوا عليها بالاسئلة. كانت متحفظة طيلة مدة عملها، وقلما تحدثت عن حياتها الخاصة. المعروف عنها انها قد تكون ارملة.

تركت كارين ما يشاع عنها على حاله، لأنها لم تكن ترغب في كشف الحقيقة واثارة الاقاويل.

لحسن حظها لم تجد أحداً في ردهة الطابق الارضي عندما تركت المصعد، فخرجت مسرعة الى الشارع وذهبت الى غرفة هاتف كانت في زاويته. ترددت قليلاً ثم دخلت، وعندما بدأت تدير قرص الهاتف أخذ قلبها يخفق بشدة من الضيق والقلق.

تناهى اليها من الطرف الآخر صوت عميق يقول قبل ان تتلفظ بكلمة:

«كارين؟... عرفت انك هي».

وردت ببرود:

«أخذت رسالتك... لماذا هذا التصرف؟ لماذا ذهبت الى المكتب؟ لقد انقطعت عن عملي، وأصبحت الآن بلا وظيفة. وددت لو انتظرت حتى...»

فقاطعها قائلاً:

«لا تبالغي يا كارين، كان ذلك ضرورياً. اصغي الي الآن والا فاتنا الوقت. أريدك ان تعودي الى منزلك وتحزمي حاجياتك. سأحضر بعد ساعة لاصطحبك الى بيتي قبل ان اتوجه الى دلرسبك».

فصرخت كارين:

«آرثر انتظر لحظة! لا استطيع ان ارتب اموري بمدة ساعة فقط... واذا كنت تعتقد اني سأعود لأعيش معك فان وقاحتك لا تطاق. وافقت ان اذهب معك الى دلرسبك ولكن ليس...»

فقاطعها بصوت صارم:

«لا خيار لك في ذلك، ولا حتى لي. سألتني اليزابيت لماذا لم تكوني معي البارحة. انها قادمة لتراك بعد ظهر هذا اليوم، والأفضل ان تكوني هناك».

وانقطع الاتصال، همت ان تتصل ثانية ولكنها ترددت لأنها كانت على ثقة بأن آرثر لا يمكن ان يبدل رأيه.

خرجت من غرفة الهاتف الى الشارع، ثم وقفت مترددة يخالجها

شعور بأن تتصل باليزابيت. قد تكون طريحة الفراش الآن وقد لا تكون، ليتها لم تكثر من الجدال مع آرثر في الليلة الماضية، واستعلمت منه اكثر عن اليزابيت. وفجأة غيرت رأيها وعدلت عن الاتصال بها. لقد قال آرثر «ساعة»، وذلك يعني بالدقة ساعة! ولكن لن تكون الساعة كافية لحزم اغراضها ومحاسبة السيدة بيجنز والايضاحات التي عليها ان تقدمها اجابة على اسئلتها الفضولية!

أسرعت الى شقتها وتنفست الصعداء اذ الفت السيدة بيجنز غائبة عن المنزل. ذلك سيفسح لها مجالاً لحزم حاجياتها بأسرع ما تستطيع. اخذت كارين تطوي ثيابها وتضعها في الحقيبة التي ما لبثت ان امتلأت. انتابها الفزع فالوقت يمر بسرعة وأغراضها كثيرة لا تستوعبها حقيبتها الثانية، وقد تتأخر السيدة بيجنز فلا تستطيع تأمين الاشياء الفائضة عندها. ثم ماذا لو رفضت السيدة بيجنز ان تبقي الشقة محجوزة باسمها لمدة غير محدودة؟ ذلك يعني ان تصبح معتمدة كلياً على آرثر...

أخذت أعصابها تخونها، كانت قد اقسمت الا تمد يدها الى النفقة التي خصصها لها آرثر، وشعرت الآن بأنه لن يكون امامها اي خيار. آه لو ان هناك سبيلاً آخر! اطبقت غطاء حقيبتها الاولى وهي تغالب دموعها...

وفجأة فطنت الى شيء... لكم هي أنانية! تفكر فقط في مشاكلها وتنسى اليزابيت. ارتعشت شفتاها من التأثر الشديد. رباه! لماذا حصل لاليزابيت ما حصل؟ تلك المرأة الرقيقة الطيبة القلب التي لم تضمر الحقد ولا الكراهية في حياتها حتى لألد اعدائها.

فركت كارين عينيها ونظرت الى ساعتها. حوالى العاشرة والنصف. سيكون هنا في أية لحظة. من الافضل ان تخط كلمتين الى السيدة بيجنز تضمنها بعض النقود وتعلمها انها ستتصل بها.

لم تكن انهت رسالتها القصيرة بعد حتى سمعت انصفاق باب سيارة في الخارج. اسرعت الى النافذة حيث شاهدت رأس آرثر

المعتم وهو يتوارى داخل الباب الخارجي. تملكها دوار مفاجىء، وراحت تبلل شفتيها الجافتين بطرف لسانها. انتظرت متوقعة ان تسمع وقع اقدامه على الدرج، ولكنها سمعت رنين الجرس الخارجي يرن بالحاح. لم يكن احد في البيت ليفتح له الباب! نزلت تركض باتجاه الباب الخارجي وراحت اصابعها ترتجف وهي تتلمس مقبضه. نظر اليها آرثر نظرة اتهام وهو يقول:

«ظننت لحظة...»

قاطعته قائلة:

«لا يوجد احد في الدار، يبدو انها خرجت الى السوق وكنت...»

خطا الى الداخل مقاطعا كلماتها المرتبكة:

«استلمت رسالتي، ذلك هو المهم، هل انت مستعدة؟»

فاستدارت تسرع امامه وهي تقول:

«كلا لم اتمه بعد، عليّ القيام بكثير من الترتيبات، وحزم الكثير من الامتعة... ولم...»

«اتركي كل شيء، سأتدبر امر امتعتك فيما بعد، احزمي فقط بعض الحاجيات الضرورية».

وصلا باب الشقة وعندما فتحته لمحت على وجه ارثر علائم الامتعاض وهو يجول بعينيه يتفحص ما في الداخل:

«أهذا افضل ما استطعت ان تفعليه؟ بيت رث في شارع خلفي وضيع... يا الهي لن استطيع سبر غورك يا كارين».

فرمقته بنظرة باردة وقالت:

«قد يبدو لك رثا، لكنه نظيف ومحترم، ومريح بالنسبة لعملي وهذا كل ما يعنيني، ويظهر انك نسيت بأنه كان من المفروض ان اكون خارج البلاد في السنتين الماضيتين. الم يخطر ببالك اني لو اقمت في مكان قريب من منطقتنا لكنت عرضة لان يراني بعض معارفنا؟»

«ليس من الضروري ان تقيمي في مكان قريب من منطقتنا، لندن مدينة كبيرة!»

«والدنيا صغيرة!»

دخلت امامه الى الشقة وتبعها. حاولت ان تحمل حقيبتها الكبيرة ولكنها كانت ثقيلة، فمد آرثر يده القوية وحملها عنها، وحملت هي حقيبتها الصغيرة. وخرجا من الشقة وهو يقول:

«حسنا تذكري دائما الاتفاق الذي عقدناه بيننا، وحاولي الا تنسيه».

وبصمت نزلا الى السيارة. وبينما كان آرثر يضع الحقائب في صندوقها، تركت كارين الرسالة الصغيرة الى السيدة بيجنز في مكان من مدخل الردهة بحيث تستطيع رؤيتها عند عودتها الى البيت، ثم اغلقت الباب خلفها.. اخذت مكانها على مقعد السيارة بالقرب من آرثر، وفجأة انتابها احساس غريب، فوجودها بالقرب منه بعد هذا الانفصال الطويل ايقظ في داخلها كل الذكريات النائمة.. وبحركة سريعة أدارت رأسها وراحت تنظر من النافذة. لقد قررت المحافظة على استقلالها، فالماضي هو الماضي، اختطت طريقها ولن تسمح لنفسها ان تتراجع عنها مهما كانت الظروف.

لم يقطع عليها آرثر حبل تأملاتها واستمر يقود السيارة بصمت حتى بلغ السوبر ماركت حيث اوقفها في مكان شاغر وقال بايجاز:

«تعالي - خزائن الطعام فارغة».

وكما اعتاد سابقا، أخذ آرثر يجر العربة الصغيرة بين الصفوف المتراصة بأنواع الاطعمة ويعبئها بما يشاء من المواد الغذائية وكارين تراقب ما يفعل شاردة الفكر. لقد عاشت سنتين كاملتين وحيدة، تسوق حاجياتها بمفردها وتدبر امورها بنفسها، والآن فقد تلاشت السنتان بأقل من يوم واحد.

أخذ آرثر قائمة الحساب من المحاسبة، وتمتم متذمرا من الاسعار التي ازدادت كثيرا عما كانت عليه قبل سنتين، وكارين الى جانبه تتأرجح بها العاطفة بين تيارات افكارها المضطربة. اذن فقد اصبحت متزوجة من جديد.

انبعثت من داخلها همسة ساخرة تناهت الى مسامعها: «ولكنك متزوجة ولا يزال آرثر زوجك». واستمر الصوت يهمس والسيارة تنطلق بها من جديد. جعلتها تلك الهمسات تجلس متشنجة في مقعدها الى جواره، وبينما الامكنة والطرقات المألوفة التي تقود الى فالنتين كريف تعبر امام عينيها، اخذت تشد يديها على حقيبتها تمنعها من الارتجاف. رأت الوميض القرمزي المنبعث من عامود العلبة البريدية في زاوية الشارع، ثم الخضرة الداكنة للطريق المحفوفة بالاشجار والتي تحجب جزءا من الدار المهيبة القائمة وسط الحدائق.

شعرت كارين بأنها تعود الى ما قبل عامين ونصف، عندما عادت برفقة آرثر من شهر العسل بالسيارة التي تباطأت عند البوابة الخامسة، ثم مرت تصرصر على الممر المغطى بالحصى لتقف امام العتبة التي تنتظر العروس. منذ عامين ونصف، ارتفعت اصوات الضحك والمزاح لاستقبالها، وصدحت الموسيقى في أجواء الدار تتخللها اصوات شغب المستقبلين وهم يأكلون ويشربون... اما الآن فلم يكن هناك سوى عصفور دوري يراقب من فوق احد الاغصان قطعة صغيرة من الخبز تلاشت تحت دواليب السيارة الغاشمة. نزلا من السيارة ودفع آرثر الباب الذي انفتح الى الداخل، حيث الصمت والبرودة، كأن الدار ذاتها كانت تنتظر بشيء من الشك، ان تعود كما كانت بيتا معمورا...

وقف آرثر وأومأ لها بالدخول بشيء من نفاد الصبر، ودخلت كارين ببطء.

كان صندوق السنديان المعتم، هدية زواجها، لا يزال في مكانه من القاعة بالقرب من كوة الهاتف التي صنعها آرثر بنفسه من الزجاج وخشب السنديان.

والباب في نهاية القاعة مفتوح جزئيا، ومن خلاله استطاعت كارين ان ترى رفوف الأواني البيضاء والسوداء اللامعة في المطبخ

العصري الكبير.

دخلت كارين المطبخ يتبعها آرثر الذي راح يتفقد الخزائن، وقال: «سأجلب ما تسوقناه من مواد وستتولين ترتيبها في اماكنها».

استدار ليخرج ولكنه توقف عندما سمعها تنادي:

«آرثر... لا يوجد في المطبخ اي شيء على الاطلاق - ألم تكن هنا ليلة البارحة؟»

«كلا... ذهبت الى الفندق».

قطبت حاجبيها قليلا وقالت:

«ولكنك ذكرت في رسالتك انك ستكون في البيت!»

فنظر الى وجهها وقال:

«لم اجد ذلك ضروريا بعدما رأيتك. انبأت اليزابيت بأنّا اقمنا في الفندق بضعة ايام، لأن مستأجري البيت لم يغادروه الاّ اليوم».

«ولكن لماذا؟!»

بدا عليه نفاد الصبر وهو يقول:

«بالله عليك كفي عن هذه الاسئلة. اليزابيت ستتصل بنا هاتفيا الآن وتريد ان تكلمك. أخبرتها بالأمس انك ذهبت الى مكتب الشحن لتستفسري عن فقدان احد الصناديق الذي كنا قد شحناه قبل مجيئنا، وهي واحدة من سلسلة الأكاذيب التي كان عليّ ان اشرح بواسطتها سبب عدم وجودك معي البارحة».

ابيض وجه كارين وهي تقول:

«لا تنظر الي نظرة اتهام، انت تعرف انها ليست فكرتي».

فأجاب عابسا:

«انا اعرف ذلك، ولكني اريدك ان تتمادي على هذه الفكرة، ومادمنا نتكلم في هذا الموضوع، فقد كتبت بعض النقاط التي عليك ان تذكريها جيدا».

حملقت كارين في وجهه بينما أخرج دفتر مذكراته من جيبه وانتزع منه ورقة ناولها اياها وقال:

«العنوان الذي كنا نقيم فيه - أي العنوان الذي من المفروض انك كنت تقيمين فيه معي في سان باولو . وأسماء بعض معارفي . وكذلك موقع مشروع العمل، وبعض التفاصيل القليلة الاخرى. ولقد احضرت مع امتعتي دليلا ساعطيك اياه لتدرسيه بامعان، وساساعدك على تفهمه عندما اعود. يجب ان يبدو عليك معرفة الاماكن والاشخاص الذين من الممكن ان يمر ذكرهم في احاديثنا، عندما نجتمع جميعا مرة ثانية».

أدركت بوضوح ما كان يعنيه، فأجابت واليأس يتجلى في عينيها:

«ولكني لم اكن قط في اميركا الجنوبية، ولا اعرف عنها اية معلومات ولو اولية، فكيف استطيع التحدث عن مدينة وبلاد كأني عشت هناك مدة سنتين؟ لا استطيع ذلك يا آرثر».

فقال بفظاظة:

«لا أتوقع منك ذلك، فقط اسكتي واومئي برأسك موافقة على ما أقول. سأجعل الامر سهلا بالنسبة لك بقدر استطاعتي، وعليك ان تستمري في هذه اللعبة ما دامت اليزابيث بحاجة الينا وسأجزل لك العطاء. وبعد ذلك . . . وبعد ذلك لا يعنيني لو ذهبت الى الشيطان».

تراجعت كارين لاهثة امام قسوة كلماته، وامتلأت عيناها بالدموع وصاحت بصوت مختنق:

«كيف تستطيع ان تقول كلمة «بعد ذلك» كأنك تقيس الزمن المتبقي من عمر اليزابيت؟».

«ولماذا لا؟ هي الحقيقة التي يجب ان نواجهها».

فصرخت:

«انك عديم الانسانية! وقولك انك ستجزل لي العطاء، يعني انك تريد ان تستأجرني لتنفيذ فكرتك! انك . . . »

فقاطعها صائحا:

«نعم، ذلك صحيح ايضا اذا رغبت في تفسير ما قلته على هذا

النحو، فأنا على استعداد ان استأجرك. استطاع ذلك رجل آخر، فلماذا لا يستطيع زوجك؟»

هزتها كلماته هزة أودت بكل أثر للون في خديها، ومن غير ان تدري ما تفعل عبرت الغرفة وقد رفعت يدها كأنها عصا السوط، وصرخت:

«كيف تجرؤ . . .»

ودوت صفعة راحة يدها على خده كالطلقة ثم خيم الصمت. وبحركة بطيئة كرجل اصابه الدوار، رفع آرثر يده يتلمس أثر الصفعة على خده، ثم استجمع قوته واطلق ذراعه باتجاهها وهو يصيح:

«أيتها الثعلبة الماكرة! ايتها الكلبة الحقيرة! استطيع ان اقتلك -»

وأمسكت اصابعه بعنقها والشرر يتطاير من عينيه.

وفجأة رن جرس الهاتف فقطع الجو المشحون وأعاد شيئا من الهدوء. سقطت يدا آرثر الى جانبه، وتراجعت كارين مرتجفة الى الوراء واضعة يديها على عنقها. استمر الرنين فهرع آرثر الى القاعة. سمعت كارين صوته خشنا غير متزن ثم بدأ يهدأ تدريجيا وهو يقول:

«نعم نحن هنا. لقد وصلنا منذ قليل . . . نعم يا عزيزتي، هي هنا . . .»

راقبته كارين وهو يعود صامتا، ينظر اليها ويمد يده بالسماعة. احست بساقيها تكادان ان تخذلاها وهي تتجه نحوه، واستندت الى الطاولة، وأخذت منه الآلة وهمست:

«هالو».

وتناهى اليها صوت اليزابيث الناعم:

«كارين يا عزيزتي - أخيرا! ما اجمل ان اسمع صوتك ثانية. كيف حالك؟»

راحت كارين تبحث عن الكلمات وهي تشعر بجسم آرثر الطويل، المشرئب الى جانبها، وكادت تلعن نفسها لكلماتها الجافة المتكلفة التي خرجت من بين شفتيها:

«انا بخير. كيف حالك انت؟»

وبدا ان اليزابيت لم تلاحظ التكلف في كلماتها فاجابت بحيوية:

«أحسن بكثير بعد عطلتي الطويلة، ولكن عودتك افضل من اي منشط اتناوله. هل انت سعيدة بعودتك الى البيت يا حبيبتي؟»

وكأنما سمع آرثر ما كانت تقول، فتحرك من مكانه محذرا. وردت كارين بنفس همستها المختنقة:

«أوه نعم، لقد افتقدتك كثيرا... واشتاق لرؤيتك، وكذلك آرثر».

فقالت اليزابيت بصوت حاد:

«باركك الله، لن اطيل الحديث معك فأمامك عمل كثير. في الواقع اتصلت بك لأن آرثر طائش، كيف يرى ان نذهب جميعا الى يورك شاير؟ لا أرى ذلك عدلا، تشرعين بالرحيل ثانية قبل ان يتسع لك الوقت لأن تلتقطي انفاسك. اخبريه ان هذه العجلة ليست ضرورية، انه لا يسمع مني!»

«لا يسمع منك؟» وتنهدت كارين تحدث نفسها... ولا مني ايضا... ثم ازدردت لعابها وتابعت:

«لا تقلقي... سنعتني بك وبنفس الوقت نمنح نفسينا قسطا من الراحة. فلماذا لا تترك كل شيء الى آرثر يتصرف حسب رأيه؟»

فأجابت اليزابيت وفي صوتها لهجة احتجاج طفيفة:

«نعم يا عزيزتي، حاولت ان افهمه بأني لم اعد بحاجة للعناية، ولكن استحال عليه فهم ذلك. انا احسن حالا الآن، صدقيني، وعلى الانسان الا يعتبر كل كلمة يقولها الاطباء صحيحة. هم انفسهم يعترفون بأنهم يخطئون احيانا. حقا حذروني بأني لست على ما يرام، ولكن لن أدع هذا الامر يزعجني. وأريد منكما، انت وآرثر، ان تعداني بألا تقلقا من اجلي. على أية حال فان ما يهم هو ما اشعر به انا شخصيا، ألا تعتقدين ذلك؟»

لم تستطع كارين الا ان تهز رأسها وتعبر عن موافقتها بصوت مكبوت.

تكلمت اليزابيت بصوت اكثر حدة:

«هل انت بخير يا كارين؟ يبدو صوتك متوترا، هل انت مريضة يا عزيزتي؟»

«كلا... كلا لا شيء. انا...»

اختطف آرثر السماعة من يدها وقال بصوت حاول ان يجعله هادئا:

«أمي، المرض الوحيد هو ان فاتورة الهاتف التي سوف تستلمها ستكون مرتفعة ارتفاع البرج ان لم تكفي عن هذه الاحاديث الصبيانية. ستحضر كارين لتراك حالما ترتب امورها، وسأراك انا بعد يومين او ثلاثة. هل هذا حسن؟»

من خلال غشاوة الدموع رأت كارين عبوسا غريبا على وجه آرثر وهو يستمع الى ما كانت تقوله اليزابيت، ثم ودعها ووضع السماعة. ونظر الى كارين فشاهد دموعها التي لم تحاول اخفاءها، فتأوه بصوت ناعم:

«كفى بالله، يجب الا تستسلمي».

هزت رأسها دون ان تنطق بحرف واحد، وهمت ان تتحرك مبتعدة، فأحست بيده تمسك بكتفها. حاولت ان تتملص فقال:

«كلا... كلا يا كارين...»

وشدها بعنف لتواجهه وتابع كلامه:

«اني آسف، ما كان يجب ان اتفوه بما قلت قبل قليل... كان ذلك...»

توقف عن الكلام ونظر اليها وعلائم العذاب تلوح في عينيه المظلمتين.

«وانا آسفة ايضا... آسفة اني صفعتك. انا لم...»

اشتدت قبضته على كتفها وقال:

«لا تقولي اي كلمة اخرى، علينا ان نحاول نسيان خلافاتنا. لن يكون ذلك سهلا ولكن يجب ان نحاول من اجل اليزابيت».

أرخى يديه واستدار بحركة مفاجئة، ثم سار بخطى متثاقلة الى القاعة الخارجية. ووقفت كارين تراقب قوامه الطويل وهو يفتح الباب الخارجي ويتجه نحو السيارة. وعندما عاد بحقيبتها الاولى كانت قد تمالكت شيئا من رباطة جاشها، ولكنها كانت تحس في داخلها بقلق غريب. لقد ظنت منذ لحظات وهي تقف قرب الهاتف، بأن آرثر على وشك ان يضمها بذراعيه، ولكنه لم يفعل. . . لم تكن تتوقع ذلك الفيض من الشوق المفاجيء. . . لقد كانت قريبة منه وما كان عليه الا ان يميل قليلا الى الامام. . .

أخذت جاهدة تلك الافكار المزعجة، واندفعت بحماس لتساعد في ادخال الاغراض من السيارة. لم يستغرق ذلك وقتا طويلا، وفي غمرة نشاطها راحت تبحث في صندوق المعلبات عن القهوة وعلبة الحليب. دخل آرثر الى المطبخ لا يبدو عليه اي أثر من آثار العاصفة العاطفية التي مرت قبل قليل، ورآها منحنية تجاهد لتفتح حنفية الماء فقال:

«دعيني».

استقامت تاركة اياه يفتح الحنفية المستعصية باصابعه القوية وقالت:

«سوف أعدّ قدحا من القهوة».

نفض الغبار من يديه وأصلح ربطة عنقه وقال:

«في الحقيقة لم يعد امامي متسع من الوقت، علي ان اصل الى دلرسبك في الرابعة لتفقد المكان هناك، واقوم ببعض الاتصالات الضرورية قبل اقفال الحوانيت».

«وماذا عن العشاء؟»

«سأتناول شطيرة في الطريق».

بدت عليه الرغبة في الانصراف فرضخت على مضض. كانت تتوق الى تزويده ببعض الطعام يتناوله في الطريق، ولكنها آثرت الصمت. قاومت رغبتها في تجاوز حدود الكلفة بينهما. مازال الوقت

مبكرا، أو لعله فات الاوان. . . ولاحت على وجهها علائم الحسرة وهي تفكر في ذلك، فجأة قال:

«هل تريدين شيئا قبل ان اذهب؟»

«لا أظن ذلك».

فرفع حاجبيه باستخفاف والقى على الطاولة ببعض الاشياء وقال:

«لا تظنين؟ وماذا عن هذه؟ مفاتيح اضافية للبيت. . . في حال مفاتيحك لم تعد بحوزتك، بعض النقود، رقم هاتف دلرسبك. . . لقد غيروا الأرقام مؤخرا، وذلك الدليل!»

نظرت الى الاشياء الملقاة امامها والتقطت منها الأوراق المالية وقالت:

«لست بحاجة الى هذه».

هز كتفيه وقال:

«القيها في الدرج اذن، ستجدينها هناك عند اللزوم».

بدا انه لم يعد هناك ما يقال، وأحست بالألم من حاجتها الى بصيص من التفاهم، جسر واه للقاء في هذه العلاقة المنفصلة الغريبة التي اختار القدر ان يقحمها فيها.

خطا آرثر الى السيارة بعد ان ذكرها بلهجة فاترة، أنها تستطيع الاتصال به على رقم دلرسبك ان جد شيء ما. والآن بعد ان انهى المرحلة الاولى من خطته، لم يظهر عليه انه يكترث بمشاعرها وهواجسها. ولكن لماذا يكترث؟ سألت كارين نفسها بعد ان اقفلت الباب، واستدارت ببطء لتواجه الصمت الفارغ للدار التي كانت بينهما يوما ما. ان الاهتمام والمراعاة يتأتيان عن الحب، وآرثر لم تبدر منه اية بادرة عن شيء من ذلك. انه لم يعد يحبها، وتساءلت ان كان قد احبها اصلا. . .

٣ - زيارة في الليل

دخلت كارين المطبخ وأعدت لنفسها فنجان قهوة. المشهد العاصف مع آرثر هزها وأوهى قواها. استندت الى احد المقاعد الصفراء وراحت تهز الفنجان بأصابعها. كيف تواجه هذه المحنة؟ تعيش الكذبة من اجل اليزابيت، تدعي بأنها وآرثر مازالا يتقاسمان نشوة السعادة المفرطة التي عرفاها لفترة قصيرة، وتنتبه لكل صغيرة أو كبيرة من تصرفاتها خشية ان تفضح زواجها المهشم على حقيقته.

احست بحرارة القهوة تصل الى اصابعها، فتركت الفنجان ليبرد وراحت تحملق بعينين شاردتين في النقوش الشهباء والخضراء والصفراء على آجر الحائط. الجزء الوحيد من المطبخ الجميل الذي لم تختره هي أو آرثر، والجزء الوحيد الذي لم تحبه. كانت ترى عيونا متوارية في تلك النقوش الحلزونية الغريبة تبعث ومضات من الشر. ليزا هي التي اختارتها تقدمة منها للبيت، واحبها آرثر لانسجام الوانها مع الألوان الاخرى. لذلك فان ليزا عندما حضرت ذلك الصباح تحمل قطعة من ذلك الآجر، نموذجا للهدية التي اصرت على ان تقدمها، وافق آرثر بقوله انه لا يمكن ان يوجد بديل اجمل منها.

ليت الزمن يعود الى الوراء، الى ذلك الصباح، الى ثلاثة ايام قبل يوم الزفاف...

ارتجفت كارين واخذت جرعة من القهوة. ما فائدة العودة الى ليت والى المرارة؟ الى الترجي بأن معجزة بشكل ما، قد تبطل ذلك القرار المأساوي الخاطىء الذي شاء القدر ان يوقعها في شركه. لقد اعطت وعدها، ولو انها عرفت ما سوف يقود اليه وعدها الصامت...

هبت كارين منسلة من المقعد وغسلت الفنجان الذي بيدها. لقد

صممت على ان تكف عن التفكير في استعادة ذكريات الماضي التي لا جدوى منها. فطالما ستقضي الايام القليلة القادمة وحيدة عليها ان ترتب غرفة لها، وترى ما يجب عمله للبيت الذي كان مشغولا من قبل مستأجرين لمدة سنتين.

عند أسفل الدرج احست بمقاومة غريبة للصعود. أطياف مسرات الماضي واشباح التعاسة كانت تنتظرها في ذلك البيت الصامت. كل خطوة تبعث ذكرى. فهناك الدلفين الفضي الذي جلباه معهما عند رجوعهما من شهر العسل في فلوريدا، لايزال محفوظا في كرته الزجاجية ذات اللون الازرق الموشح بالاخضر، على رف مقوس صغير. ذكرها ذلك الرف بيوم قام آرثر يثبته في الحائط فجرح يده بالازميل جرحا عميقا، وكيف اصابها الهلع عند رؤية الدم في كل مكان، ولم تعد تدري أتستدعي الطبيب أم تقوم بتضميد الجرح، وكيف ربطت منشفة حول الجرح وأخذت آرثر بالسيارة رغم احتجاجاته الى الطبيب. كانت في غاية القلق عند رجوعهما الى البيت، اذ اخذت تذكر قصص العجائز عن الاصابة بمرض الكزاز اذا أصيبت قاعدة الابهام بجرح، مما أثار ضحك آرثر، فسخطت عليه وعندها سحبها اليه قائلا بانه يستطيع ان يمنحها الحب بيد واحدة...

رجعت كارين بتفكيرها ثانية الى حاضرها، وتابعت جولة التفتيش. لقد ترك المستأجرون البيت نظيفا للغاية، والشيء الوحيد الذي خلفوه وراءهم هو صرة نظيفة على ظهر صندوق البياضات تحوي كيسي وسادة، ولحافا وزوجا من المناشف. كانت رسالة صغيرة مثبتة بالمنشفة العلوية وورقة نقدية مطوية من فئة الجنيه. مكتوب في الرسالة: «جزيل الشكر لتأمينكم إيانا على بيتكم. حاولنا جهدنا ان نتركه بالشكل الذي نرغب ان نجد بيتنا بعد رجوعنا اليه. عفوا لتركنا هذا الجنيه، آملين ان يغطي نفقة الغسيل. سوجلبرن».

شعرت كارين بالشكر لأولئك المستأجرين، وهبطت بالاشياء

فرستها في الغسالة. لم يكن امامها عمل كثير، اذ لا حاجة لاعداد البيت بشكل كامل، حيث انها على وشك ان يغلقاه ثانية لأمد غير محدود.

بعدما نشرت الغسيل ليجف في الحديقة الخلفية، أعدت لنفسها غداء خفيفا، ثم صعدت الى غرفة النوم الصغيرة التي قررت ان تنام فيها لتهيىء بعض البطانيات. كانت اشد غرف البيت برودة، ولكنها اختارتها لتتجنب فيها ذكريات غرفة النوم الرئيسية.

تنهدت، ولم تستطع مقاومة انفتاح خيالها على فيض الذكريات. لقد عاشت هناك فترة غرام عنيف. قبل يوم واحد فقط من زفافهما تم توقيع عقد شراء البيت الذي غادراه فورا الى شهر العسل. وعند عودتهما الفيا البيت في فوضى من الطين وكسارة الحجارة. كانت اشرطة الكهرباء متدلية في كل مكان، وحنفيات الماء معطلة. وفي غمرة تلك الفوضى أقاما حفلة صاخبة. وتمثلت امام عينيها احداث تلك الحفلة التي حضرها بعض الاصدقاء. كانت ليلة حافلة بالمرح والبهجة والنكات، وكم ضحكت هي وآرثر...

ولكن ما كانت تلك الليلة السعيدة الا مقدمة للكارثة! في تلك الليلة قابلا طوني فوستر، ذلك الغريب الذي كان يرافق احد اصدقاء آرثر، الغريب الذي وضع الحلقة الاولى في السلسلة التي قادت الى لقاء فينس كاين الفنان الشهير، وكان بداية الانحدار الى المأساة التي حطمت سعادة فتاة بريئة. وهمست كارين: سعادتي أنا!

امتلأت عيناها بالدموع، فكفكفتها ساخطة. وصاحت بصوت كاد ان يكون عاليا طالبة من نفسها ان تكف عن التفكير: كل شيء انتهى وفات الاوان. ولكن كيف يمكنها ان تكف عن التفكير وقلبها يصرخ من المرارة والعذاب ضد ظلم القدر؟ لماذا يجب عليها ان تعاني تلاشي احلامها؟ وثقت بحب آرثر لها، ولكنها بعد حين اكتشفت عدم ثقته بها. لقد صدّق عنها اسوأ الامور ولم يعطها فرصة واحدة كي تدافع عن نفسها ما اتهمها... آلمها ذلك أكثر بكثير من كلماته

الجارحة التي صبّها عليها عندما...

أفاقت من ذكرياتها على رنين جرس الباب الذي عكّر السكون من حولها. من يكون القادم يا ترى؟ هل...؟ وفجأة تشنجت مفاصلها، فهل يمكن ان يكون آرثر؟

استحثت كارين نفسها للرعشات الصغيرة المجنونة التي انتابتها وهي تهبط الدرج. لا بد ان يكون الطارق احد البائعين، أو قارىء عدّاد الكهرباء... لا احد يدري انها عادت الى البيت. وعندما فتحت الباب صاحت وقد تملكتها الدهشة، فهناك كانت تقف اليزابيت.

حلقت كارين طويلا بشيء من الشك في القوام النحيل الجذّاب لوالدة آرثر بالشيب، ثم فتحت اليزابيت ذراعيها وضمت كارين اليها بقوة وهي تقول:

«أرجو الا أكون قد أزعجتك، لكني لم استطع الا ان آتي لرؤيتك. ان كنت مشغولة فقولي ذلك يا حبيبتي».

«كلا! سوى انني... أنا...»

فضحكت اليزابيت وقاطعتها:

«لم تتوقعي حضوري؟ شكرا للسماء، فأنا مازلت قادرة على الحركة».

شهقت كارين شهقة عميقة، فلم تكن تعرف كيف سيكون لقاؤها الاول مع اليزابيت بعد سنتين من الفراق. بالطبع لم تكن تتوقع ان ترى اليزابيت تختلف كثيرا عن المرأة التي عرفتها. ربما انحف قليلا، والشعر الناعم الاشقر غلب عليه البياض. اما عيناها الزرقاوان فلا زالتا صافيتين لامعتين، وبشرتها الوردية البيضاء لازالت بضة ناعمة، وشخصيتها الدافئة التي تجذب اليها الكل لازالت في تمام حيويتها. ولكن اذا دقق المرء النظر اليها، يستطيع ان يلمح ظلال الالم تحت عينيها، وعلائم الضعف تبدو أكثر جلاء مما كانت عليه.

وتابعت اليزابيث كلامها:

«ظننت ان باستطاعتي مدّ يد المساعدة، ان الابتعاد عن البيت مدة سنتين، يجعله محتاجا الى عمل كثير لاعادته الى ما كان عليه».

استمرت اليزابيت في حديثها وقد غلبتها عواطفها التي ظهرت واضحة في عينيها:

«انه لرائع ان تعودي الينا ثانية. فالمدة التي غبتها عني كانت أطول سنتين في حياتي».

أحست كارين بغصة في حلقها، ولكنها تمكنت من الابتسام. وافسحت المدخل بلطف وشدت اليزابيت الى الداخل وهي تقول:

«رائع أن أراك... ادخلي وسأعد الشاي».

قادت اليزابيت الى غرفة الجلوس وأسرعت لتعد الشاي، وأعطاها هذا العمل البسيط الفرصة لاستعادة رباطة جأشها. وعندما عادت بالصينية كانت قادرة ان تقول بلهجة عادية لا تكلف فيها:

«خرج آرثر منذ قليل، لو كنت بكرت قليلا لرأيته».

أخذت اليزابيت قدح الشاي وقالت:

«لم اكن اريد رؤيته. أردت التحدث اليك، وهذا في الواقع سبب قدومي الآن».

هوى قلب كارين بين جنبيها، ماذا حدث؟ هل عرفت اليزابيت الحقيقة؟ وجلست قبالتها تنظر اليها في شيء من القلق وسألت:

«لماذا... هل هناك خطأ ما؟»

أخذت اليزابيت تحرك السكّر في كأسها وقد غلب عليها التفكير. ثم نظرت الى كارين وقالت:

«كلا يا حبيبتي، ليس تماما، ولكني قلقة عليك بسبب مشروع الانتقال هذا. أنا لست مسرورة ابدا من فكرة آرثر هذه، عن انتقالنا جميعا الى دلرسبك. وطبعا لست بحاجة لأخبرك عن آرثر، فهو اذا عزم على أمر لا تستطيع اية قوة ان تغير رأيه. ولكن ما أخشاه هو ان

تشعري بأنك مكرهة على هذا الانتقال».

تنفست كارين الصعداء وقالت بسرعة:

«كلا بالطبع! أعتقد انها فكرة رائعة».

فقالت اليزابيت ببرود:

«أتعتقدين ذلك؟ حسنا، أما أنا فلا. هذا منتهى الظلم. انه لا يعطيك فرصة للنزول من الطائرة حتى يطلب منك الاستعداد للرحيل من جديد».

أجابت كارين بحزم:

«هذا اقل ما يزعجني. أرجو الا تعطي هذا الامر شيئا من اهتمامك».

تنهدت اليزابيت وقالت:

«أخشى ان ليزا لن توافقك على هذا الرأي. فأنت تعرفين كما اعرف انا انها ستتبرم من الضجر قبل ان تمضي عليها خمس دقائق في دلرسبك. وهذا يعني ان على كليفورد تبديل وجهته الى يورك شاير في عطل نهاية الاسبوع، وهذا متعب جدا بالنسبة له. كما عليه ان يعود الى شقة لا انسان فيها خلال الاسبوع. والمشكلة ان آرثر يرفض ان يصغي. وأنا أتساءل ان كان بوسعك أنت ان تثنيه عن فكرته».

كادت كارين ان تنفجر ضاحكة. لو ان اليزابيت تدري! فلقد أكرهها آرثر هي نفسها على ان تتخلى عن شقتها، أن تفقد عملها الجيد، وتركب متن خديعة تحمل بين طياتها تهديدا دائما بكارثة مدمرة. قالت بصوت عال:

«أنا؟ لقد عقد آرثر عزمه وانتهى».

فقالت اليزابيت منزعجة:

«نعم، كنت اخشى ذلك، ولكن المشكلة هي اني لست متأكدة من ان رأيه هو الافضل. اعلم انه يفعل ذلك من اجلي، واني اشكره من أعماقي على ذلك، ولكن الغريب انه لم يحدث أن تدخل من قبل بهذه الصورة للعمل على اسعاد امه!»

تقوّس فمها الجميل وتابعت بسخرية:

«دعينا نواجه الموضوع، فلو انك مكاني، هل تشعرين بالحماس الشديد لأن يتجمع أهلك حولك ينتظرون موتك؟»

ارتفعت يد كارين الى عنقها وتمتمت:

«كلا، كلا! أنا متأكدة ان آرثر لا يقصد...»

فقاطعتها اليزابيت بصوت جاف:

«لا يقصد؟ ولكن تلك هي الحقيقة، أليس كذلك؟ آرثر لا يريد ان يرى الأمر على هذا النحو. انه يعتبره اجتماعاً جيلاً حميماً لشمل العائلة. الجميع يتقرب من الوالدة محاولاً ان يجعل ما تبقى من عمرها هانئاً وسالماً معافى بقدر الامكان».

توقفت اليزابيت عن الكلام وعيناها تشعان بالعاطفة الصادقة. افترّت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وهي تنظر الى الاسى الذي تجلى على وجه كارين. وقالت:

«لا تبالي يا عزيزتي، لن اسمح بمستقبل بارد سلبي كهذا. اني اعرف الأمور التي يجب ان اتغلب عليها. وما يهمني الآن هو ان اقنع الناس باني في تمام الصحة وافضل بكثير مما كنت عليه قبل بضعة شهور. ولن اسمح لأي انسان بعد اليوم ان يلفني بالقطن الطبي، حتى ولو كان هذا الانسان احد افراد عائلتي الحبيبة. لا شك سينهكهم التعب قبل مدة طويلة من تحقق ما يخشونه».

لم تدر كارين ما تقول. كان في وجه اليزابيت الشجاع أمل متوهج يصعب اخماده، فهل أخطأ الأطباء؟ وهل يمكن تخمين ذلك؟ كانت اليزابيت قد طلبت من آرثر ان يعلمها حقيقة رأي الاطباء بصدق، وجاء قرارهم تكهّنا مأساويا مغايرا لذاك التخمين. لو ان اليزابيت اختارت طريقها الخاص للتفاهم مع القدر، فما على الجميع الا ان يحترموا رغباتها.

سكبت اليزابيت لنفسها كأساً ثانية من الشاي والتفتت الى كارين قائلة:

«لقد أعلمت آرثر باني احب دلرسيك في الربيع والصيف وحتى في الخريف، ولكنه اذا كان يتصور باني سأقضي الشتاء القادم هناك فالاجدر به ان يحرر نفسه من هذا الوهم. انا ذاهبة الى ماربيلا في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ان شاء الله».

عضّت كارين شفتيها وقالت:

«يعتقد آرثر انك غير سعيدة في تلك الشقة».

حسناً، انا لست سعيدة هناك، ولست ادّعي اني لم اكن اعاني من الشوق اللاهب لرؤية دلرسيك. ولكني بدأت اشعر بالندم الآن لأني لم اكن احس نحوها بمثل هذه اللامبالاة من قبل. لقد انطلق بي آرثر اليها بسرعة البرق، وفي خلال ساعات جعل الحركة تدب في كل شيء».

نعم بوسع آرثر ان يفعل ذلك: حدّثت كارين نفسها بمرارة وقد شرد ذهنها، على الرغم من الوحشية التي عاملها بها، وعلى الرغم من قساوة عمله، فقد كان يكنّ احتراما واخلاصا بالغين للمرأة التي منحته عنايتها وحبها في الوقت الذي حرمه العالم من اي عطف...

كثيرا ما انتابها شيء من الفضول لمعرفة ذلك السر... الجزء المغلق من حياة آرثر المبكرة... ما لم يتحدث عنه ولو بكلمة واحدة حتى في اكثر اللحظات قربا ومحبة. الشيء الوحيد الذي كانت تعرفه هو انه كان يتيما، وان اليزابيت وزوجها أدخلاه بيتهما عندما كان في الحادية عشرة من عمره، وأن تلك اللحظات كانت المرّة الأولى التي احس فيها بالحب والحنان في حياته. وفجأة هبّت كارين واقفة واتجهت نحو اليزابيت. انحنت واحاطت كتفيها بذراعيها وقالت:

«أرجوك يا اليزابيت، حاولي ألا تشغلي بالك بهذه المسألة، واتركي كل شيء لنا، واني اعدك ألاّ أدّخر وسعا في جعل آرثر يتركك تعالجين الأمور بالطريقة التي تريدينها. سترين ان كل شيء يجري على ما يرام، أنا متأكدة من ذلك».

ابتسمت اليزابيت ابتسامة مرتعشة وقالت:

«باركك الله، اني امرأة محظوظة ان يكون لدي ابن وكنّة رائعان مثلكما».

وتناولت قفازيها وحقيبتها وتابعت:

«والآن يجب ان اعود، والا فان ماجدا ستثور كالدجاجة العجوز».

«ماجدا لازالت معك؟»

«نعم بالطبع. لقد آن لها ان تتقاعد وترتاح، ولكنها ترفض ان تتركني».

رافقتها كارين الى الباب وهي تؤاخذ نفسها لانها اكتفت بسؤال لا مبال عن «ماجدا»، تلك المرأة الأمينة التي بقيت في خدمة اليزابيت منذ زواجها قبل أربع وثلاثين سنة.

فجأة استدارت اليزابيت وقالت:

«على فكرة يا عزيزتي، أود ان اشكرك على رسائلك الطويلة الجميلة التي كتبتها لي أثناء غيابك. استمتع جدا ان أتلقى أخباركما باستمرار. كانت مطبوعة بشكل أنيق. لا أدري لماذا يعتقد بعض الناس ان طباعة الرسائل تجعلها اقل خصوصية واقرب الى الرسمية. أنا أرى عكس ذلك، فهي أسهل للقراءة وخصوصا ان البعض تصعب قراءة خطهم».

أحسّت كارين بشيء من الحرج وهي تتلقى الثناء على شيء لا تستحقه. فماذا كان آرثر يكتب في تلك الرسائل يا ترى؟

وقفت تراقب اليزابيت حتى توارت في سيارتها عن الأنظار ثم أغلقت الباب. اخيرا كانت قادرة أن تنزع قناع الحذر عن وجهها. لم يعد لديها أدنى شك بعد لقائها باليزابيت في صحة ما اخبرها به آرثر. لقد اجتازت تجربتها الاولى بنجاح مع اليزابيت. ولكن ما تخبئه لها الايام القريبة القادمة سيكون ولا شك اشد خطورة. ففي الاسبوع المقبل سيجتمعون جميعا في دلرسبك مع شبح المرض الماثل ابدا في وجه اليزابيت، ومع شظايا الزواج المحطم التي عليها ان تخفيها،

وذلك بالاضافة الى ليزا...

أحسّت كارين بالبرودة تتسرب الى قلبها المتوجس خيفة من المستقبل. ولكن هل من مفر؟ لقد أعطت وعدا وهي تشعر في قرارة نفسها ان ليس لديها الرغبة بأن تنكث بوعدها. وهناك أمر آخر، فانها شعرت بما كانت تقنع به نفسها من انها لم تعد تبالي بآرثر غير صحيح. وهذا معناه انها ستعيش كذبة اخرى...

كانت الايام الثلاثة التالية أشد اثارة للقلق من كل ما مرّ عليها من أيام. لم تسمع كلمة من آرثر... وهذا طبيعي فهو لا يكلّف نفسه بالاتصال الا اذا كان هناك سبب جديد.. ولا سؤال من ليزا، وهذا لم يدهشها لأنها كانت تحس بالحاجز الذي يمنعهما من التقرب احداهما الى الأخرى لتصبحا صديقتين حميمتين.

اتصلت اليزابيت مرتين او ثلاثا، وفي المكالمة الثانية أعلمتها ان ليزا وزوجها سيحضران للعشاء معها في ذلك المساء، وتودّ لو انها تحضر ايضا. شعرت كارين بهلع لا مبرر له، واعتذرت بأنها مرتبطة بموعد آخر، وقبلت اليزابيت اعتذارها. أرخت كارين السماعة من يدها وهي تشعر بحرارة خديها للكذب الذي بدات تألف ممارسته. ومع ذلك كانت مرتاحة لتأجيل اجتماعها بليزا الى امد أبعد. ولكنها احست بسخف عملها اذ ليس هنالك سبب يحدوها الى تجنّب ليزا.

قامت كارين بجولة اشترت أثناءها بعض الحاجيات، وما ان عادت الى المنزل حتى فوجئت برنين جرس الهاتف. هرعت الى السماعة يخامرها شعور انه آرثر، فسمعته يصيح متبرما:

«اين كنت بحق الله؟ هذه المرة الثالثة التي احاول فيها الاتصال بك».

فأجابت لاهثة:

«آسفة، كنت في السوق، وكنت أتوقع ان تتصل بي في وقت متأخر من هذا المساء. هل الأمور تسير حسب الخطة؟».

«لا بأس. سأرجع الليلة، وأنا لا ارى سببا يحول دون ان نأخذ

اليزابيت الى هناك غداً.

عبست كارين وقالت:

«هذا لا يعطيها وقتا كافيا لتستعد للانتقال الى هناك يا آرثر، والساعة الآن قد جاوزت السابعة».

أجاب ببرود:

«يمكن ان تبدأ بعد الغداء. والآن اسمعي، لديّ موعد في الثامنة، لا تنتظريني... سأتأخر بعض الوقت، لهذا استعدي انت لأننا سنذهب صباحا الى اليزابيت لمساعدتها. اتصلي بها الآن وأعلميها، ان ذلك يوفّر عليّ بعض الوقت».

أجابته كارين بالايجاب وهي تسمعه يودعها ويضع السماعة.

اتصلت باليزابيت وأعلمتها بما طلبه آرثر. ثم أخذت تعد حوائجها اللازمة للانتقال، وراحت تفكر، من الذي سيؤخر آرثر هذه الليلة؟ من المحتمل ان تكون امرأة! ولكن هل هذا معقول؟ لا يمكن ان يكون امضى السنتين بعيداً عن الجنس الآخر، لكنه لم يعد الا منذ اسبوع فقط، امضى منها ثلاثة ايام في يورك شاير، وهي مدة غير كافية لأن يبني علاقة مع احداهن.

هدأت أرجوحة عواطفها قليلا، ثم ما لبث ان بدأت تتأرجح من جديد. ان مدة سنتين كافية لانشاء علاقات كثيرة، ولكن لماذا تناقش نفسها بمثل هذه الامور؟ حقا ان آرثر لا يزال زوجها ولكن اسمياً فقط. وهذه العلاقة الجزئية ما هي الا لمصلحة اليزابيت، ولهذا فكلما اسرعت في اثبات هذه الحقيقة، كلما كان أملها اكبر في الوصول الى راحة البال.

لم يجد النوم سبيلا الى عينيها مع انها اطفأت النور، وأظلم البيت وخيم السكون خارج الباب. وعندما انتصف الليل اشعلت النور واخذت تقرأ في احد الكتب، ولما اتمت قراءته كانت الساعة الواحدة وعشر دقائق. فركت عينيها المتعبتين واستلقت تحاول ان تنام، واذا بها تسمع الصوت الذي كانت تنتظره، صوت سيارة تدخل المرآب.

المفتاح يدور في قفل الباب، ولكنها لم تر نورا ولم تسمع صوتا. كانت متأكدة من انها لم تعد وحيدة في البيت. مرت خمس عشرة دقيقة وتلتها خمس اخرى، وبدأت أعصابها تخونها. لماذا لا يبدي آرثر اية حركة؟ لماذا لا يذهب الى سريره وينام حتى تتمكن هي ان تنام بسلام؟

وفجأة نهضت من سريرها وهبطت بهدوء الى القاعة الخالية. لم تشاهد نورا في المطبخ ولا في غرفة الطعام، فاتجهت الى غرفة الجلوس ودفعت الباب بلطف، وهناك وجدته مستلقيا على احد المقاعد، مستغرقا في النوم قرب الطاولة. كان قدح من الشراب قريبا من مرفقه، وخصلة من شعره تتدلى على احدى عينيه.

وقفت مكانها لحظة تتملكها الحيرة. أتتركه نائما هناك؟ وان فعلت فقد يستيقظ في الصباح متشنج العضلات من البرد في حالة لا تسمح له بقيادة السيارة مسافة طويلة الى الشمال.

خطت خطوة مترددة الى الأمام، ثم قفزت بجفلة. رأت عينيه مفتوحتين تحملقان فيها وعلائم خفيفة من السخرية تشع من أعماقهما.

ابتسم لها وقال:

«حسنا يا كارين. لم أكن اتوقع ترحيب الزوجة في هذا الوقت من الصباح».

فتلعثمت قائلة:

«ظننتك نائما».

«كنت كذلك حتى تسللت كالقطة الى الداخل. وتأكدت اني لم أكن احلم. ماذا بك؟ أتشعرين بشيء من اهتمام الزوجة؟»

تجاهلت اللهجة الساخرة وقالت:

«آرثر، أتعرف ما الوقت الآن؟ ان كنت تنوي السفر غدا الى دلرسبك، أليس من الافضل ان تأوي الى سريرك؟»

جلس وهو يعبث بربطة عنقه المتدلية أسفل ياقة قميصه المفتوحة وقال:

«إذاً فأنت قلقة! أو ان لديك أفكارا أخرى؟»

حدقت فيه لحظة ثم فهمت ما يعنيه، فتراجعت خطوة الى الوراء، وبشكل غريزي شدت قميص نومها على جسمها النحيل وقالت:

«أفكار اخرى؟ حقا انك مغرور بنفسك».

هب من مقعده بسرعة وامتدت يده وأمسكت برسغها تمنعها من الفرار، فأحست أنه طويل جدا، وقوي جدا ويكاد يلتصق بها.

وانطلقت منه الكلمات ناعمة:

«أخبريني يا كارو، ماذا تقولين لو اخبرتك باني اكتشفت في نفسي فجأة رغبات كنت أظنها ميتة بالنسبة اليك؟»

«اقول بأن تنساها».

أخذت خفقات قلبها تتسارع. كان وجهه منحنيا في الظل وأنفاسه الحارة تلفح وجهها، وراح يشدها اليه، فبعث ذلك في نفسها ذكريات الحب، ذكريات الوعود...

حاولت التملص منه قائلة:

«آرثر، كن عاقلا بحق السماء، لم يكن هذا جزءا من الاتفاقية وأنت تعرف ذلك».

لم يبد عليه انه يرغب في ان يخلي سبيلها وقال:

«أنا اعرف ذلك؟ أظن أننا عقدنا هدنة».

قالت وهي تناضل للمحافظة على اتزانها:

«نعم ولكن تذكر أنها كانت من أجل اليزابيث فقط».

انطلقت منه شهقة وفجأة أحست بانها اصبحت طليقة... ابتعد عنها وهو يصلح ربطة عنقه، وسمعته يقول بصوت مكبوت:

«نعم أنا اذكر ذلك، يالله، لقد تعبت».

اجابت وهي تحكم الحزام حول قميصها:

«وانا تعبت ايضا، أتريدني ان اعد لك شرابا، شوكولا أو

حليب، لعل ذلك يساعد على تهدئتك».

ادار لها ظهره وأمسك كأس الشراب الذي كان بجانبه وجرع منه جرعة كبيرة. انتظر لحظة ثم صب ما تبقى في فمه، واستدار، واذ رآها مازالت واقفة وعلائم القلق بادية في عينيها، قال وقد ضاقت عيناه:

«اذهبي الى فراشك واتركيني لوحدي، والآ...»

لعقت كارين شفتيها الجافتين، كان ما تعنيه كلماته واضحا، وشعرت بأن ما يمنعه عنها خيط رفيع سرعان ما ينقطع. فاختنقت الكلمات في حلقها واتجهت كالعمياء الى الباب، وانسلت خارجة وأغلقته خلفها. وعندما وصلت الى غرفتها دسّت نفسها في سريرها الضيق البارد وهي ترتعش من رأسها الى أخمص قدميها.

أخذت تراجع نفسها ـ ما أشد غباءها! كيف نزلت اليه بهذا الشكل...؟ وأي شيء آخر يمكن ان تتوقعه عندما تتصرف بنزوات الطفل الساذج؟

لم يكن ثملا، لكنه كان متعاطيا شيئا من الشراب، واذ بها تدخل عليه كالشبح، تغزوه وهو في غفوته... حمقاء! ولكمت وسادتها غاضبة وهي تحاول حبس الدموع التي تجمعت بين أجفانها المغلقة، وأحست بشيء من العزاء لأن كبرياءها وقوة ارادتها تمكنتا من كبح ذلك الدافع الطاغي المحموم الذي كان يعتمل في أعماقها، يحضها على الاستسلام له عندما حاول ان يعانقها، وعندها يكون الأوان قد فات...

وراحت تحملق في الظلام تنتظر هدوء مشاعرها الجياشة.

٤ - حديث على الجسر

في اليوم التالي بدأ السفر الى الشمال وكأن ليس له نهاية. انطلقوا تحت شمس ساطعة بعد غداء مبكر. وبعد اقل من اربعين ميلا الى الشمال من لندن، تلبّدت السماء بالغيوم وانهمر المطر مدراراً، وأخذت قطراته تتناثر على نوافذ السيارة بلا توقف. بعد ذلك بقليل وجدوا انفسهم يعبرون سيلا اعترض طريقهم وجعل السيارة تخفف من سرعتها وتتباطأ شيئا فشيئا.

صعوبة القيادة في هذه الاحوال منعت آرثر عن الكلام، لكن لحسن الحظ لم يظهر على اليزابيث وماجدا اللتين جلستا على المقعد الخلفي أي أثر للانزعاج. ماجدا المرأة البدينة الممتلئة حيوية التي كانت في الستينات من عمرها أنعشتها فكرة العودة الى موطنها في يورك شاير. وكانت تتحادث مع اليزابيث بسعادة ألهتها عن الوحل في الطريق وعتمة الجو في الخارج. وغاصت كارين في مقعدها الامامي فريسة لوحشة افكارها التعسة.

حاولت كارين كبت تثاؤبها، اذ جعلها دفء السيارة تدرك مقدار ما تعاني من الارهاق وما تقاسي من انهيار معنوياتها. نظرت من النافذة الجانبية، فلاحظت ان المطر بدأ يخف، وان الجو أخذ يميل الى الصحو، وتلون الافق بلون نحاسي، فأذعنت للتعب وتركت جفنيها يتهدلان، لكن ذلك لم يدم سوى لحظات، أجفلت بعدها على صوت فرقعة مجلجلة وسمعت اليزابيث تصيح:

«لا تكن عنيدا هكذا يا آرثر - لا يمكنك الاستمرار في هذا الجو!»

كانت تهب عليهم في تلك الاثناء عاصفة عاتية جعلت السماء سوداء كأنما لفها ليل دامس، تشقها بين الحين والحين شروخ هائلة من البرق، تقطعها أصوات الرعد المنذرة بالتشاؤم.

أجاب آرثر:

«لا يمكنني التوقف هنا. ضعوا ايديكن على آذانكن مسافة بضعة اميال اخرى».

تحولت الطريق الى نهر هادر يتألق تحت انعكاسات أنوار السيارة الأمامية. جلسة النساء يخيم عليهن الصمت الى ان لاحت بعد بضع دقائق انوار محطة للوقود. انحرف آرثر الى الطريق الجانبية المؤدية اليها، واندفع الجميع للالتجاء في مقهى المحطة. شربوا الشاي هناك وتسلوا ببعض قطع البسكويت لينتظروا خمود العاصفة.

وتكلمت اليزابيث قاطعة خمود العاصفة:

«يبدو على كارين التعب.»

لم تنتبه كارين الى ما قالته اليزابيث ولكنها سمعت آرثر يجيب بغير اكتراث:

«كارين بخير، أليس كذلك يا كارو؟»

فأنّبته اليزابيث قائلة:

«لم تتغير يا آرثر فمازلت عديم الرحمة! ألا ترى انها شاحبة كالشمع؟»

ضحك آرثر ضحكة فاترة وألقى ذراعه حول كتفي كارين وقال:

«هل خفت من الرعد يا حلوتي؟»

كان بود كارين ان تتخلص من ذراعه، ولكن كان عليها ايضا ان تستمر بتمثيل دورها، فاصطنعت ابتسامة وقالت:

«كلا يا آرثر... انما قيادتك هي التي اخافتني».

ضحكت اليزابيث، وسحب آرثر ذراعه بشيء من العجلة وقال:

«حان الوقت للتحرك، هل ترغب احداكن بشيء آخر؟».

لم تبد على احداهن الرغبة في أية حاجة، وتحرك الجميع ليواجهوا هبات الرياح الماطرة.

كانت الساعة تقارب الخامسة عندما ظهرت أمامهم اللوحة البيضاء القديمة التي تشير الى دلرسيك. وبعد معاناة شاقة برزت الشمس عندما كانت السيارة تعلو قمة المرتفع عند رأس الوادي، وهناك، غير بعيد عن الارض المنخفضة كانت تستلقي دلرسيك

الخضراء الوادعة. وبدأت الطريق الشهباء المتموجة بين الحقول والبساتين الداكنة الخضرة تتلوى أمامهم. ثم تجاوزوا الدور المبنية من الحجارة، ذات السطوح المبلطة بالبلاط الازرق، وبعدها مروا بالبيوت الريفية البيضاء المنثورة على الوادي، وهبطوا الى القرية التي كانت بيوتها تلتف حول الفندق الأسود القديم المسقوف بالخشب الأبيض، ثم عبروا الجسر المحدّب فوق النهر.

كانت اليزابيت تحدق ذاهلة بالأماكن التي احبتها، ثم أشارت بيدها الى المنزل المربع الاشهب الذي ولدت فيه، وعندما انعطفت السيارة نحو الممر الضيق على الجانب الآخر من الجسر قالت بشوق:

«آه، قف آرثر، أرجوك دعني انظر».

ومن دون ان يتكلم أوقف آرثر السيارة، وتأوهت اليزابيت قائلة:

«ما أجملها، كيف تمكنت من ترك هذه الأمكنة».

وفجأة فتحت باب السيارة وراحت تشق طريقها وهي تقول:

«تابع يا آرثر. أريد ان اقطع الدرب على قدمي مارة بالسد».

فاحتج آرثر قائلا:

«كلا، ليس الآن، دعي ذلك الى الغد».

انحنت اليزابيت ونظرت خلفها الى السيارة وهي تقول:

«لن أضيع، هي مسيرة عشر دقائق فقط».

رأت كارين علامات الفزع الحقيقي في عيني آرثر، ومن دون ان تريث، أمسكت حقيبتها وهبت من مقعدها وهي تقول:

«سأذهب مع اليزابيت».

فقال آرثر مغتبطا:

«ستذهبين معها؟ شكرا كارو».

ولأول مرة في ذلك اليوم رأته يومىء اليها بحرارة وهي تغلق باب السيارة، فأحست بطعنة مريرة ذلك ان ايماءة المجاملة العرضية تلك كانت هي الوحيدة التي تمكنت ان تخترق جدار عدم اكتراثه بعواطفها، مع انها كانت تدرك ان موقفه منها لن يكون افضل،

وعليها ان تروّض نفسها على تقبل هذا الموقف.

نفضت عنها تلك الافكار وأسرعت خلف اليزابيت التي كانت تحثّ السير على الممر الضيق الى ضفة النهر. التفتت اليزابيت الى الوراء بابتسامة ما عتمت ان تخللتها الكآبة وقالت:

«لا تقولي انه طلب منك ان تلحقي بي؟»

«كلا... لكن اطرافي تخشبت في السيارة».

«صحيح! جلسنا وقتا طويلا».

تابعت اليزابيت السير وهي تتنشق رائحة الهواء الطيبة النقية، ثم قالت:

«أحببت السير على هذه الدرب».

لم تفقه كارين معنى لما قالته اليزابيت، لكنها احست ان هناك مغزى وراء كلماتها وعادت اليزابيت تقول:

«هذا الاسبوع ذكرى المرة الاولى التي اتيت فيها الى مبنى دلرسبك، وهذه هي نفس الدرب التي سلكناها بعد أن غادرنا السيارة كما فعلنا الآن».

التفتت اليها كارين مستفهمة:

«تقولين سلكناها؟ تعنين انت وزوجك؟»

هزّت اليزابيت راسها بالايجاب وقالت:

«كان يوما من أيام آذار، تماما مثل هذا الوقت الذي أخذت فيه الخضرة الفاهية تظهر على الأغصان، والطبيعة الجميلة تبدأ حياتها من جديد مع انحسار فصل الشتاء. كنت التقيت مع جيمس للمرة الاولى قبل ذلك ببضعة اسابيع، وعرفنا كلانا ان ذلك اللقاء قد بت في أمرنا. اتفقنا على القيام بجولة الى يورك، وفجأة طلب مني أن آتي معه الى البيت، وأدار وجهة السيارة ورجع بي الى هنا».

كفت اليزابيت عن الكلام، واستمرت تشق طريقها فوق الدرب التي اصبحت تضيق تدريجيا وترتفع متثاقلة تحت اغصان الاشجار المتشابكة، ثم قادهما الممر الى تلة من الارض الفضاء، حيث شاهدتا جسرا ريفيا صغيرا تحول لونه بفعل الطحلب الى أخضر باهت،

كان يصل بين ضفتي النهر تماما فوق الشفير الصخري، حيث المياه تندفع الى البحيرة المزبدة في الأسفل. كانت النباتات تكسو الجانب الاول للجسر بينما راح شجر الصفصاف يمد اغصانه المحرومة باتجاه الضفة البعيدة، وعلى مسافة ابعد قليلا، حيث كان صف من الحجارة يبرز عند الطرف الضيق للبحيرة يستعمله المارة للعبور.

ألقت اليزابيث يديها على حاجز الجسر المعوج وشردت بعينيها الى الذكريات البعيدة:

«على هذا الجسر طلب مني جيمس الزواج. ومن ثم مشينا الى البيت لاعلام والديه بالنبأ... كنا سعداء جداً».

وقفت كارين صامتة فلم يكن لديها ما تقوله. وتابعت اليزابيث حديثها:

«توفي والد جيمس بعد ست سنوات من زواجنا. ومن ثم جعلنا بيتنا هنا. كانت أمه غاية في اللطف، لها جناحها الخاص بالبيت. حقا كان بيتا مكتمل السعادة».

كانت كارين تنظر الى المياه... هذه هي زيارتها الأولى الى دلرسيك. في الأشهر الاولى من زواجها سمعت كثيرا عن هذا المكان من العائلة. ولقد أرتها اليزابيث صورا كثيرة للبيت ولزوجها جيمس الذي توفي قبل سنة من تعرفها بآرثر. سألت ببطء:

«هل البيت من أملاك العائلة منذ مدة طويلة؟»

اجابت اليزابيث ويدها تتحسس عقد خشب الحاجز:

«حوالي ثلثمائة سنة، وأنا أدرك ان من المستحيل على آرثر في هذا العصر ان يعيش فيه، لكني اتمنى الا يبيعه بعد رحيلي».

عضت كارين على شفتها وهي تتمنى لو انها تستطيع الكلام بحرية أكثر:

«اوه، أنا متأكدة بأنه لن يفعل ذلك، ان آرثر يحب دلرسيك».

كانت اليزابيث تحملق بالجدول المتعرج والخضرة الملتفة وقالت:

«أنا أعرف ذلك، وانه لأمر غريب ان يكون آرثر وهو ابني الذي لم

البلد أشد احساسا بالقرب الى دلرسيك من ليزا نفسها. ليزا لن تقبل ابدا ان تعيش هنا، فهي ما ان بلغت الثامنة عشرة من عمرها حتى تركناها تفر الى المدينة. اما آرثر فانه استوعب منذ البداية كيفية تسيير العمل في العقار وما يتوجب على ذلك من مسؤولية. وعندما اصيب جيمس بنوبته الأولى أراد آرثر، وكان آنذاك كالبرج قوة، ان يترك الجامعة ويعود نهائيا الى البيت، ولكنا لم نرض بذلك والححنا عليه كي يكمل دراسته، ففعل. وبعدها اذا أردت مثالا للعقل النابغ والكذّاب البارع فان آرثر هو ذلك المثال».

لا تخالف كارين ابدا تلك الحقيقة، وعلى الرغم من المرارة التي تحس بها بسبب تحطيم حبها، فانها لا تزال تشعر بالحسرة والتأثر لطفولته المشردة، عندما تتذكر طفولتها الوادعة المحاطة بحب والديها. وعقبت قائلة:

«نعم... واني اعتقد انه لا يمكن لمن ولد وترعرع بين أحضان عائلة سعيدة ان يدرك تماما معنى ان ينشأ الانسان في ميتم ليس له من احد يخصه بالذات».

التفتت اليزابيث الى كارين مستغربة:

«ميتم؟ ولكن يا عزيزتي آرثر لم يكن ابدا في ميتم».

حملقت كارين بدهشة وقالت:

«ولكني حسبت... كنت دائما اظن...»

«تقصدين انه لم يحدثك ابدا؟»

هزت كارين رأسها وقالت:

«أعرف انه كان يتيما وعاش طفولة بائسة حتى تبنيتماه أنت وجيمس، عندما كان في الحادية عشرة من عمره. وأعرف انه يفكر بك كثيرا وهو على استعداد ان يضحي بكل شيء من اجلك. ولكنه لم يحدثني ابدا عن حياته الاولى. مرة واحدة بعد زواجنا سألته عن طفولته فغيّر موضوع الحديث بسرعة، وعندما الححت عليه اقفل البحث نهائيا قائلا بأنه لا يريد الخوض ابدا في ذلك الموضوع».

اخذت اليزابيت نفسا عميقا ولاحت الكآبة في عينيها وهي تقول:
«لا افهم. . . ماذا حصل لآرثر؟ اعني ان يجعله. . .»
ترددت كارين، خشية ان تكره اليزابيت على البوح بأمر لا ترغب فيه. ولكنها احست فجأة برغبة جامحة لمعرفة الاسرار التي اخفاها آرثر، ليس عن اخته بالتبني فحسب بل حتى عن زوجته ايضا.
فتنهدت اليزابيت وقالت:
«أمر محزن، بل واكثر من محزن، انها مأساة. اشك احيانا في اني شخصيا اعرف كل شيء. آرثر لم يعرف والديه قط، ولا حتى ظروف ولادته. أعلموه فقط بأن امه تركته مذ كان رضيعا، وان أباه كان ضابطا بحريا توفي في البحر. ثم علم وهو في الثامنة بأن أمه كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما هجرته بعد ولادته مباشرة، واختفت في لندن، وان أباه لم يكن الا مجرد بحّار عادي مجهول. عاش آرثر عند والدي أمه وكانا يعطفان عليه ويحبانه. ثم ترملت جدته وتزوجت من آخر بعد سنة من ذلك. وانتقل الجميع الى ناحية اخرى من المدينة. ومنذ ذلك اليوم عاش آرثر كابوسا مخيفا من القساوة والوحشية على يد زوج جدته».
تريثت اليزابيت قليلا ثم تابعت:
«لا مجال للشك ان زوج جدته كان رجلا مخيفا. وان جدته اصبحت تخاف زوجها ايضا. قد توحي اليك كلمة جدة انها كانت عجوزا، ولكنها في الواقع لم تكن كذلك. كانت في حوالي الاربعين من عمرها وما لبث ان حلت، وكان لزوجها الجديد أبناء ثلاثة من زوجته السابقة، كأنهم نسخ طبق الاصل عن والدهم الفظ الرهيب. ولذا لم يكن لديها القدرة على حماية آرثر الذي تمكن اخيرا ان يفرّ هاربا».
تريثت اليزابيت مرة ثانية وهزت رأسها هزة خفيفة وتابعت:
«وجدوه في درهام عندما أمسكوا به يسرق قطعة من البسكويت ليأكلها في السوبر ماركت. وأرجعوه الى جدته. ولكنه بعد اسبوعين

هرب ثانية الى ليدز هذه المرة، حيث وجده احد رجال الشرطة في منتصف الليل نائما في سيارة. مسكين ذلك الصغير، كم صرخ وقاتل عندما علم انهم سيعيدونه الى البيت. واهتمت الشرطة بأمره عندما شاهدوا آثار الكدمات والضرب على جسده، واستدعوا زوج جدته وهددوه بالسجن ان هو عاد الى ضرب الطفل وتعذيبه. ولكن هذا الزوج عاد الى نفس أسلوبه الاول في معاملة الطفل، مما ادى الى ان تأخذ الشرطة آرثر الصغير وتضعه تحت الحماية».
نظرت كارين مشدوهة وصاحت:
«لم أحلم في حياتي ان يحدث شيء مثل هذا!»
توقفت عن الكلام تحاول ان تتصور في مخيلتها آرثر الذي تعرفه، طفلا صغيرا لا حول له ولا قوة تحت رحمة عالم لا يحبه، وحيدا من غير أصدقاء. لماذا لم يحدثها بكل هذا يا ترى؟
تنهدت اليزابيت وأكملت حديثها قائلة:
«كان آرثر يشعر ان العالم بأسره يقف ضده، وعادت المشاكل من جديد: تشرد. . . تخريب الآثار القديمة. . . سرقات. حتى يئست منه سلطات الجمعيات الخيرية. كان زوجي قاضيا في ذلك الحين، فعلم بقصته، وساهم بايجاد عائلة ترعاه، كان آنذاك في التاسعة من عمره. وعندما بدأنا نشعر أن مشكلة آرثر الصغير قد حلّت، بعد ان انقطعت اخباره عنا مدة ثلاثة اشهر، اذ بنا نعود لنسمع بأنه وقع في المشاكل مرة اخرى.
كنت أعمل في ذلك الوقت في جمعيات رعاية المنحرفين، فذهبنا نتقصّى أخباره من تلك العائلة التي تبنت رعايته، فأقسموا انهم لا يستطيعون ان يفعلوا أي شيء لاصلاحه، فهو ولد عنيد الى أبعد الحدود. تمرد آرثر الصغير وقال انه لا يريد ان يعيش مع تلك العائلة، التي كان أفرادها يكرهونه ويعاملونه بكل قسوة.
كان زوجي يعتقد عكس كل ما يعتقده الآخرون بالنسبة الى آرثر. كان الصغير باعتقاده ذكيا للغاية. وذا مهارات كامنة غير

محدودة، ولكن المشكلة الاساسية هي في كيفية توجيه مهاراته تلك ووضعها في مسارها القويم بدلاً من تركها على هواها تتخذ اتجاهات فيها كل معاني التمرد ومخالفة القوانين.

مضت الايام وانا وزوجي لا ننقطع عن متابعة اخبار آرثر ومقدار ما كان يعانيه من شقاء وعذاب. وفي احدى الليالي بعد العشاء، سألني جيمس فجأة ان كنت لا أزال اهتم بذلك الطفل، فلما أجبته بالايجاب قال انه دائم التفكير فيه ولا يستطيع ان يبعده عن مخيلته. وفي صباح اليوم التالي سألني عن رأيي في تبني آرثر الصغير، كان قرارنا قاطعاً، ولم ننتظر استكمال الاجراءات القانونية ومنها اقتفاء اثر أمه الحقيقية خشية ان تظهر فجأة وتطالب بابنها. ولم نستمع لنصائح اصدقائنا الذين حذرونا من اننا قد نسبب لأنفسنا مشاكل نحن في غنى عنها. وأن علينا سؤال ابنتنا ليزا عن رأيها وكانت آنذاك في الرابعة من عمرها، وأن رأي الاطباء في أني لم اعد قادرة على انجاب طفل آخر قد يكون خاطئاً. ولكننا لم نصغ لأحد، ونجحنا في مهمتنا وكنا نشكر الله في جميع صلواتنا لانه يسّر لنا سبيل النجاح».

وصمتت اليزابيت، وراحت كارين تحملق على غير هدى في ظلمة الغسق التي كانت تستعد لاسدال ستائرها. كان لديها الكثير لتقوله ولكن الكلمات خانتها. عليها الآن ان تفكر في آرثر على ضوء هذه المعلومات الجديدة، ترى ماذا يمكن ان يؤول اليه مصيره لو لم يجىء له الله هذه المرأة الرحوم الواعية التي تجلس الآن الى جانبها؟

وتحركت اليزابيت من جديد وقد احكمت ياقة سترتها حول عنقها وقالت:

«أريدك ان تخفي كل ما حدثتك عنه خشية ان يعتقد آرثر باني خنت ثقته، ولكني احببت ان تعرفي ذلك، فقد تساعدك هذه المعرفة على تفهم وضعه عندما تعتريه بعض الحالات الانطوائية».

عضت كارين على شفتها وقالت:

«أشكرك على إعلامي بكل ذلك».

وأكملت اليزابيت:

«ترك ماضيه البائس أثرا عميقا في نفسه، وهذا على ما أعتقد السبب الذي يجعله يتأنى طويلا قبل ان يمنح ثقته للآخرين. كان له دائما الكثير من الاصدقاء ولكنه كان يبقي هؤلاء بعيدين عن مكنونات قلبه. حتى ليزا التي كانت مولعة به وهي بعد طفلة. . . كان شديد التحفظ معها. . . ولم تنجح ابدا في التقرب اليه. ولكن لا يستطيع احد ان يقضي حياته منعزلا بعواطفه، مانعا ثقته عن كل الناس خوفا من الغدر أو الخيانة. ولهذا السبب حدثتك عن ماضي آرثر، لأني عندما أرحل سيكون في حاجة اليك اكثر مما تتصورين، فلن يكون له احد غيرك».

وضعت كارين ذراعها حول اليزابيت بمودة وقالت:

«هل تصدقين لو قلت لك بأني ما أحببت احدا في حياتي غير آرثر؟ وأن كل ما كنت اريده هو الاستمرار في حبي له والعناية به ما دام هو في حاجة الي».

التقطت كارين انفاسها وهي تعلم أنها كانت صادقة في كل كلمة قالتها، ولكنها لم تجرؤ ان تضع تأكيداتها الحارة في صيغة الفعل الحاضر حيث وجب ان تكون. فهل لاحظت اليزابيت ذلك؟

ضغطت اليزابيت بأصابعها على أصابع كارين شاكرة، ثم قالت مستغربة:

«أصابعك متجمدة، أليس من الافضل ان نتحرك، لقد حل الظلام».

شبكت اليزابيت ذراعها بذراع كارين، وبدأتا تشقان طريقهما على طول الممر الملتوي الضيق. كانت كارين على الرغم من تظاهرها بالمرح والغبطة تحس في داخلها بالحزن الثقيل، وتعرف أنه سيمر وقت طويل قبل ان تكف عن التفكير في كثير من الألم والشفقة بما قاساه آرثر في طفولته البائسة. ولا ريب في ان هذه المعرفة الجديدة عن ماضيه وضعتها أمام تصور جديد لشخصيته قد يؤثر في علاقتهما، أو على الاقل فيما تبقى من تلك العلاقة.

آه لو أنها تعرف كيف ستجري الأمور!

٥ - السريران التوأمان

أثبتت نبوءة كارين انها ليست من دون أساس.

كان آرثر يقف في ساحة البيت الأمامية المغطاة بالحصى عندما وصلت كارين واليزابيت الى نهاية الممر حيث يلتقي بالطريق الرئيسية. ومع ان الظلام كان عميًا في ذلك الوقت، فان النور المنبعث من مصباح واجهة الدار كان كافيا لكي يكشف خطوط القلق المتوترة في وجه آرثر. غاص قلب كارين بين جنبيها وهو يهرع نحوهما صائحا:

«أين كنتما بحق الشيطان؟ كنت على وشك ان ارسل جماعة للبحث عنكما».

ضحكت اليزابيت وهي تجيب:

«كلام فارغ... هل تعتقد اننا يمكن ان نضيع؟ كنا نتحدث على الجسر الصغير - آه عزيزي، أريد كارين ان تتمتع بمشهد البيت في ضوء النهار».

أمسك آرثر بذراع اليزابيت وراح يقودها الى داخل الرواق الحجري وهو يقول:

«تستطيع ان تشاهده غدا... تجمدت أطرافك ولا شك اليس كذلك؟»

ثم التفت وصاح بصوت غاضب:

«حقا يا كارين، كان يجب ان تكوني أعقل من ان تتركيها واقفة تتحدث في هذه الريح الباردة. لماذا لم...»

قاطعته اليزابيت واستدارت لتواجهه:

«آرثر! لم تكن خطيئة كارين، انها غلطتي، لا أدري ما فعلت جنوب أمريكا بطباعك، لكنها بكل تأكيد لم تحسّن منها!»

عضت كارين على شفتها واستولى على قلبها احساسها المألوف بالظلم والقنوط. رأت ان التوتر بينها وبين آرثر بدأ يهدد فرحة اليزابيت بعودتها الى البيت، فماتت رغبتها الفطرية في الرد على اهانته. قالت بسرعة وهي ترغم نفسها على مجاراة الغضب البارد الذي كان ينبعث من عينيه:

«اني ذاهبة في الحال لاعداد شراب ساخن لاليزابيت».

أجابها دون ان تهدأ حدة غضبه:

«ماجدا أعدّت الشاي... انه في غرفة الجلوس، لكني اظن انه امسى باردا كالثلج الآن، تأخرتما أكثر من ساعة».

تنهدت اليزابيت قائلة:

«أخبرتك يا حبيبي، بدأت أستذكر الأيام القديمة ولم اشعر بالبرد».

ثم استدارت ولمست ذراع كارين قائلة:

«تعالي، دعينا نتناول الشاي ولو كان باردا، وبعد ذلك أظن انه سيغفر لنا».

دخلتا غرفة الجلوس حيث كانت ماجدا بانتظارهما، وقد أعدّت الشاي وبعض الشطائر. كانت غرفة الجلوس آية في الروعة والجمال، والنار تشتعل في الموقد ناشرة الدفء والطمأنينة في المكان.

جلست كارين صامتة تحملق في النار، تسائل نفسها عن آرثر الذي لم يتبعهما. أتعرض عليه ان تطبخ شيئا للعشاء، من الواضح ان ماجدا متعبة الآن لكنها قد لا ترحب بأن يتدخل احد في مناطق نفوذها، ولو كان قصده التعاون ومدّ يد المساعدة.

وضعت كارين قدح الشاي على الصينية وتنهدت، واحست بالتعب يتسرب الى جميع اعضائها، جعلها الدفء المنبعث من الموقد تتوق الى الاسترخاء واغماض عينيها، وفجأة دخل آرثر في اللحظة التي كانت تحاول ان تكبت تثاؤبة تلح على فمها. قبل ان ينطق بكلمة واحدة قالت اليزابيت:

«أعتقد ان لا حاجة لنا بالعشاء فنحن جميعا متعبون».

رفع آرثر احدى يديه وقال:
«لكني أريد ان أتعشى، ان كنتن جيعا قد اكتفيتن بالشاي والشطائر فأنا لست مثلكن».
وخطا بضع خطوات عبر الغرفة ثم قال:
«لا تقلقن، رتبت كل شيء، سنتعشى في الثامنة والنصف، لكني لا اريد اي تدخل من احداكن في المطبخ».
قال ذلك وهو يوجه نظرة تهكمية الى ماجدا التي قهقهت ضاحكة وسألته:
«ماذا ستطعمنا اذن سيد آرثر؟ لحم عجل غير ناضج وبطاطس شبه مشوية على النار؟»
نظر اليها متحدّيا وقال:
«أستغرب منك يا ماجي، فان الغيرة تأكلك دائما».
«أنا ؟ أغار؟ من ماذا؟»
«لا تتجاهلي، «ماجي»، فان افضل الطباخين هم من الرجال».
واقترب من الموقد ماسّاً ركبتي كارين عند مروره بجانبها، وألقى بقطعة حطب في النار ثم استدار ملتفتا الى ماجدا التي شعرت بأنها قد أهينت وقال:
«في الحقيقة انا اتطلع الى اعداد عشاء دسم هذه الليلة».
فسألته اليزابيت:
«ومن سيقوم بتنظيف وغسل الأواني والاطباق بعد ذلك؟»
«ماجدا طبعا».
قالت اليزابيت محتجة:
«آه كلا، ان ماجدا لا يمكنها غسل ذلك الجبل من الأوعية والاطباق الذي ستتركه بعد ان تمتع نفسك في المطبخ».
«سنترك كل شيء الى الغد. تمزي ستقوم بذلك».
انشرحت عينا اليزابيت واختلط في وجهها السرور وعدم التصديق:
«تمزي! آرثر انك لا تقصد. . .»

ظهرت علامات الارتياح على وجه آرثر لردة الفعل التي تجلت على وجه اليزابيت قال:
«نعم، كانت ستأتي اليوم للترحيب بك، لكن ظروفها اقعدتها عن ذلك وستحضر غداً».
قفزت اليزابيت وطوقت ولدها بذراعيها:
«أظن ان هذه أجمل مفاجأة تقدمها لي!»
«اذن فقد غفرت لي ذنبي؟»
«الفظاظة التي صدرت مني طيلة هذا اليوم!»
عادت اليزابيت الى مقعدها وهي تقول:
«العاصفة هي السبب، أثارت انفعال الجميع، والآن انظر اذا كانت كارين غفرت لك ايضا، انهكها التعب ولم تعد قادرة على فتح عينيها».
للمرة الاولى منذ دخل الغرفة التفت آرثر ونظر الى زوجته. كانت متعبة حقا وحرارة النار المنبعثة من الموقد تلقي ظلا معتما على عينيها. اهتز فيها برعشة وهي تنتظر ردّة فعله على طلب اليزابيت.
تقدم نحوها وجلس على ذراع مقعدها، أدخل يده خلف رأسها وراحت أصابعه تداعب جدائل شعرها الحريري الناعم أسفل عنقها، ثم شدها اليه وقال:
«أمتعبة يا حبيبتي؟»
غضب مفاجىء كاد يجعلها تبعد نفسها عن مداعباته، هل يظن انها دمية يلتقطها أو يهملها كيف ومتى شاء؟ لكنها امتنعت عن ذلك عندما رأت اليزابيت تراقبها. تحكمت بدوافعها المريرة وهمست:
«نعم، قليلا، تعب عابر».
وغيرت الموضوع وسألت:
«من هي تمزي؟»
أضاف وهو مستمر بمداعباته المثيرة للأعصاب:
«هي العمود الفقري لدلرمبك. مربية ليزا ثم مديرة المنزل. . .

كانت ماجدا تعمل طاهية عندنا في تلك الأيام. عندما انتقلنا الى لندن لم تشأ ان تفارق عائلتها. أما زوجها فكان يعمل عند والدي سائسا لجياده لمدة طويلة».

توقفت اصابع آرثر عن الحركة، ونهض متجها الى المطبخ لاعداد العشاء. تبعته كارين فأدركته عند باب المطبخ قائلة:

«سأساعدك».

«ألست متعبة؟»

أغلقت باب المطبخ خلفها وقالت:

«بحق السماء، كف عن وخزي بإبرك، اني احاول ان أتصرف بأفضل ما أستطيع».

أجابها بعدم اكتراث:

«آسف يبدو ان أعصاب الجميع متوترة نوعا ما».

فقالت بمرارة:

«سيكون أهون علي وانت تمثل هذه التمثيلية لو انك تخفف من محاولة اتقانك لدورك».

فأجابها دون ان ينظر اليها:

«انك لا تبذلين اي جهد لتمثيل دورك بنجاح».

أمضيا بعض الوقت صامتين وهما يعدان وجبة العشاء، وعندما أوشكا على الانتهاء قالت كارين:

«لا يزال امامنا ربع ساعة للموعد الذي حددته لتناول العشاء، سوف أغتسل وأبدل ثيابي في هذا الوقت، أين الغرفة التي اعددتها من أجلي؟»

«في الطابق العلوي، الباب الأول الى اليسار، في الغرفة حمام، حقائبك هناك».

عبرت الرواق الى القاعة الرئيسية وصعدت السلم القديم المصنوع من خشب السنديان، كان كل شيء حولها لا يزال محافظا على طرازه القديم ذي الجمال الأخاذ. بلغت أعلى الدرج حيث يمتد

رواق طويل على جانبيه ستة أبواب. فتحت كارين الباب الأول الى اليسار، وتلمست زر المصباح فأضاءت الغرفة، رأت حقائبها داخلها بالقرب من الباب. أغلقته خلفها وراحت تنظر بشيء من الفضول متفحصة داخل الغرفة. كانت فسيحة عالية السقف كغيرها من غرف البيت، ذات أفاريز مرتفعة مزخرفة ولها نافذتان تمتد ستائرهما المخملية الزرقاء القاتمة من أعلى السقف حتى الأرض، تتدلى منها اهداب مزركشة بلون أشد زرقة يتناسب ولون السجادة الصينية التي كانت تفرش الأرض، وفي أحد الجوانب موقد أبيض اللون مزخرف الحاجز. كان الاثاث من الطراز الملكي الأبيض كله مقابض مذهبة وأطره الخشبية مرصعة بالخرز البيضاوي اللامع.

تلمست كارين بأطراف اصابعها ورق الجدران الحريري ذا الزرقة السماوية، وراحت في شبه غيبوبة تتذكر بيت أهلها في كنت. لم يكن يضاهي دلرسبك من حيث الحجم والقدم، لكنه كان يشبهه بجوه الهادىء المريح ذي الطابع الريفي القديم الطراز وهنا كما هناك، لم يكن يربط البيت القديم بالعصر الحديث الا شبكات التدفئة المركزية التي كانت ضرورية ولا شك لحماية البيت من فصل الشتاء الشمالي الشديد البرودة.

أحست فجأة بالحنين الى ايام طفولتها الدافئة، والى الملاذ الأمين بين أحضان أهلها. شعرت بالوحدة في هذه الغرفة التي فقدت كل معنى من معاني الحياة.

هزت كارين رأسها اذ لم يعد أمامها متسع من الوقت، فتحت حقيبتها الكبيرة وأخرجت منها المنشفة وعلبة الاسفنج، وخلعت ثوبها وألقت به على أحد السريرين التوأمين، وأدارت الحنفية التي كانت في الغرفة، وفجأة فطنت الى شيء لم يخطر على بالها من قبل! هذه الغرفة الواسعة والسريران التوأمان... استدارت وهي تكبت صرخة كادت تخرج من بين شفتيها وقد غمرها فيض من الشك. أسرعت الى خزانة الثياب وفتحتها على مصراعيها فتأكدت ان شكّها الرهيب

كان حقيقة واقعة، نعم فأمامها كانت ثياب آرثر، قمصانه، جواربه، ربطات عنقه... ركضت باتجاه الباب الثاني حيث غرفة الحمام، وهناك شاهدت كل ما يدل على انها كانت مشغولة من قبل انسان، من قبل رجل. منشفة الحمام، عدة الحلاقة، زجاجة كولونيا، فرشاة أسنان... وتسللت الى انفها رائحة المواد التي يستعملها الرجال لزينتهم.

مسح الفزع كل لون من خديها، فهل تخيّل...؟ هل اعتقد انها ستمضي في التمثيلية الى هذا المدى؟ اغلقت فمها بقوة. واجتاحها الغضب. صممت أن تتحداه. رجعت الى غرفة النوم وقد تبخر من ذهنها أي تفكير لتبديل ثيابها. امسكت بيدها الفستان الذي خلعته قبل قليل. لكنها أحست بحركة في الغرفة وشاهدت ظلا على السجادة، استدارت واذا بثوبها يسقط من يدها، فهناك قرب النافذة كان يقف آرثر. رفع حاجبيه مستغربا وقال:

«هل شاهدت شبحا في الحمام؟»

عثرت كارين اخيرا على صوتها فقالت:

«ماذا تفعل هنا؟»

أجابها ببرود:

«اقفلت الحنفية التي تركتها مفتوحة وأرخيت الستائر».

وعندما رآها لا تكف عن الحملقة في وجهه قال:

«ماذا؟ هل هناك خطأ ما؟»

ثارت ثائرة كارين وصاحت:

«خطأ! أخرج من هنا!»

«ماذا؟ اخرج من غرفتي؟»

«غرفتك؟»

«انا أشغلها منذ الاسبوع الماضي».

صاحت وقد استثارتها لهجة صوته المتعجرفة:

«اذن لماذا أحضرت حقائبي الى هنا؟»

«ان ذلك يبدو واضحا».

تراجعت كارين خطوة الى الوراء وهي تقول:

«ماذا تعني بما قلت؟»

توجه ببرود الى مرآة الزينة في زاوية الغرفة ونظر اليها من خلال المرآة قائلا:

«أليس من الطبيعي ان يشارك الزوج زوجته في غرفة النوم؟»

فصرخت بحدّة:

«لكن ليس في هذه الحالة! لم يكن هذا جزءا من الصفقة التي اتفقنا عليها!»

التفت اليها وقال:

«لا أذكر اننا بحثنا هذا الامر او اوردناه بشكل خاص في اتفاقيتنا، لكني اعتبرته أمرا مفروغا منه».

«انك... انك وقح! كيف تجرؤ...؟»

فقاطعها قائلا:

«كيف يمكن ان تكوني شديدة الغباوة الى مثل هذا الحد؟ ماذا ستقول اليزابيث لو انها عرفت باننا ننام في غرفتين منفصلتين؟»

لمحت القسوة تستقر في عينيه واحست بالبرودة تنتشر في جسدها. رفعت يديها ولمست كتفيها، شعرت بجلد بشرتها يرتعش تحت لمساتها. وبشيء من الدهشة انحنت تلتقط ثوبها الذي سقط منها واخذت تحاول ان ترتديه. أثارها الغضب فعميت عن وضع الكمين ولم تعد تدري كيف ترتدي الثوب، فقال لها ساخرا:

«هل تريدين مساعدة؟»

«ليس منك».

«ولماذا لا؟ هل تخشين ان امتع نظري بمفاتن جسمك؟»

تصاعد الدم الى خديها وقالت:

«وهل أتركك تفعل ذلك؟»

ألقت ثوبها جانبا وتناولت من حقيبتها عباءة ألقتها على جسمها،

وواجهته قائلة والغضب يلتمع في عينيها:

«أنا اعني ما أقول يا آرثر. أريد غرفة اخرى».

«ذلك مستحيل، وأنت تعرفين السبب».

«لن اقبل اسبابك بعد الآن».

فقابلها بلهجة واضحة:

«اخشى الا يكون لك خيار».

«آرثر! انا لن انام معك في غرفة واحدة!»

أطبق فمه بقوة ثم فتحه قائلا:

«لقد أوضحت لك أكثر! انا لن اقبل ان نكون زوجين حقيقيين».

«لا اعتقد اني طلبت منك ذلك، اسمعيني بحق الله...»

«لا اريد ان أسمع شيئا، اذا...»

فأمسك كتفيها بقوة وصاح:

«بل يجب ان تسمعيني. هل تظنين باني احضرتك الى هنا لاكرهك على شيء؟ بعد كل ما حدث قبل سنتين؟ هل تظنين باني غفرت لك فعلتك بهذه السهولة؟»

«آرثر... ! دعني انصرف!»

لم يبد عليه انه سمع ما تقول، أقتمت ملامحه بالمرارة وهي تحاول ان تتملص من قبضتيه، لكن ذلك لم يساعد الا في زيادة انغراس اصابعه في بشرة كتفيها الناعمة. وصرّ باسنانه صائحا:

«كيف تظنين اني كنت اشعر خلال هاتين السنتين، كنت أتذكر دائما فعلتك الشنيعة، حتى في جنوب امريكا لم استطع ان انساها. في اول يوم وطئت قدماي احد شوارع سان باولو...، في أول مرة ادخل فيها بيت احد الناس، احد الغرباء... في آخر مكان أتوقع ان ارى فيه ذلك... ذلك...»

قطع عليه حديثه صوت تناهى من الخارج يقول:

«هالو...»

وتلا الكلمة الناعمة نقرة على الباب. سقطت ذراعا آرثر عن

كتفي كارين وازدرد لعابه بصعوبة وقال:

«نعم! ادخلي».

كان صوته غير متزن. تحرك الى الباب بينما رفعت كارين يدا مرتعشة الى عنقها.

دخلت اليزابيت وعلى وجهها ابتسامة ما لبثت ان تلاشت عندما لاحظت وجهي آرثر وكارين شاحبين شحوب الموت. لم تعلق بأي كلمة وانما اكتفت بالنظر الى ولدها ثم قالت:

«حضرت لاعلمكما ان كل شيء جاهز للعشاء الآن. شممنا رائحة البطاطس المحروقة ولكن ماجدا انقذت اللحمة».

فقال آرثر بصوت غلب عليه الذهول:

«ولكني قلت باني ساعد العشاء بنفسي. ونحن...»

فقاطعته اليزابيت بصوت لطيف ولكنه حازم:

«جيد اني لم آخذك بكلمتك، هل ستتأخران؟»

«إننا نازلان على الفور».

راح آرثر يتخلل شعر راسه باصابعه بينما امسكت كارين بمشط واخذت تسرّح شعرها الاشعث وكأنما لعبت به ريح عاصفة، ثم ما لبثت ان قالت:

«انا جاهزة الآن».

أسرعت نحو الباب وهي تدرك انها لم تعد تحتمل ان تبقى لحظة بمفردها مع آرثر، قبل ان تستعيد رباطة جأشها قليلا. ظلت اليزابيت صامتة وهم يهبطون الدرج بينما كان آرثر يجرّ قدميه المتثاقلتين جرا وهو يتبعها ويسائل نفسه اذا كانت شعرت بجو التنافر الذي يسود الغرفة عندما دخلتها.

كانت جلسة العشاء تلك بالنسبة الى كارين من أشد ما تحملته في حياتها تعاسة وتكلفا. تمنت بمرارة لو كان بمقدورها ان تخفي مشاعرها الحقيقية تحت ستار من الدماثة وحلاوة الحديث، كما فعل آرثر، بغض النظر عمّا كان يجيش في داخله من احاسيس في تلك

اللحظة . . . اذ جعل الحديث من السهولة بحيث لم يكن مطلوبا منها الا ان تجيب بلا أو نعم على بعض الاسئلة التي كان يوجهها اليها بين الفينة والفينة، بخصوص عمله في جنوب امريكا.
انتهزت كارين فرصة انهماك اليزابيث بالحديث وانسلت لتعد القهوة.

استأثرت اليزابيث بتعاطف كارين، كانت تعتقد ان صحتها الضعيفة تحتاج الى حماية تامة، وان مبالغة آرثر برعايتها قد تسبب لها الضرر اكثر من المنفعة، ذلك ان اليزابيث كانت من النوعية التي تفضل ان تخوض معركتها المقيتة مع المرض بطريقتها الخاصة، لذلك فان تدخل آرثر قد يقوض ثقتها بنفسها.

عندما انتهت من اعداد القهوة دخلت بالصينية الى غرفة الجلوس، واشعلت النور ثم وضعت قطعة من الحطب في الموقد المتوهج باللهب. كان الآخرون لا يزالون في غرفة الطعام، واذ كانت تهم بالذهاب لمناداتهم رن جرس الهاتف. ترددت لحظة، هل ترد بنفسها أم تنادي اليزابيث أو آرثر؟ لكنها رفعت السماعة واعطت رقم الهاتف من دون ان تذكر اسمها، وسمعت صوت المتكلم يسأل بشيء من الحيرة:

«من هناك؟»

أجابت كارين فورا وقد عرفت الفتاة من صوتها:

«هنا كارين، كيف حالك يا ليزا؟»

تغيرت لهجة ليزا وقالت:

«آه أنا بخير، لم استطع ان اميز صوتك».

«مرّ وقت طويل منذ سمعته آخر مرة، انتظري فسوف أنادي امك».

«مهلا لحظة! هل كل شيء على ما يرام؟»

«أمك في غاية السعادة لعودتها الى البيت، وعلى الرغم من تعبها من الرحلة الشاقة فقد تمتعت بها كثيرا».

«آه، حسنا. . . هل آرثر هناك؟»

«نعم هل تودين ان تتحدثي معه؟»

«كلا، كلا، أرجو فقط ان اكلم امي ولن ازعجها طويلا ان كانت تشعر بالتعب».

فتحت كارين باب غرفة الطعام ومدت يدها بالسماعة الى اليزابيث قائلة بأنها ليزا، ثم ذهبت متباطئة الى غرفة الجلوس، حيث صبت القهوة لماجدا وآرثر ولها، وانسحبت الى كرسي بعيد عن النور. لقد خف شعورها بالتعب والكآبة الآن، وما أحوجها الى ان تنفرد بنفسها. شعرت كأنها امضت يوما طويلا طويلا في دلرسيك وليس مجرد ساعات قليلة. كانت الساعة تجاوز التاسعة بقليل ولم يكن الوقت مناسبا للاستئذان بحجة النوم، خاصة وأن امامها تلك المشكلة المخيفة التي عليها ان تواجهها، على أية حال. . . ستجد لها حلا هذه الليلة بطريقتها الخاصة، عليها ان تفهم آرثر ان فعلته التنكرية تلك يجب ان تقف بعيدا عن العلاقات الزوجية. ان الألم والمرارة والاتهامات تحول بينهما بالاضافة الى سنتين طويلتين من الفراق. كم سألت نفسها هل كانت تلك الاشهر القليلة من السعادة الحقة التي قضتها مع آرثر حلما، حلما عاشته معه يدا بيد، ثملين بفرحة اكتشاف احدهما للآخر، ثم تلاشى ذلك الحلم الجميل فجأة بفعل قوة قاهرة لا دافع لها. تعرفت على آرثر فأحبته بكل ذرة من ذرات قلبها، عقلا وجسدا، واذ بها تجده رجلا عديم الثقة بها يتهمها بكل قسوة، ثم لا يمنحها فرصة للدفاع عن نفسها، والآن كما في السابق تواجه الحقيقة الرهيبة: ان آرثر ما أحبها قط، فلو كان يحبها فعلا لاكتفى بكلمتها ولم يطلب منها ايضاحات ما كان بوسعها ان تعطيها. . .

أحست كارين بحرارة الموقد التي كانت تلفح وجهها. غامت ألسنة اللهب امام عينيها اللتين أخذتا ترمشان بسرعة وهي ترفع رأسها لتقابل نظرات آرثر المتفحصة. شعرت بنبضات قلبها تتوقف لحظة، ثم تعود لتخفق متألمة تحت حدة تلك النظرات المنبعثة من عيني آرثر السوداوين، كأنما تلتمس بعمق سبيلا للاتصال. لكنه

تحرك اخيرا وعادت القسوة القديمة تغمر عينيه من جديد. كلا كانت واهمة فلم تر في عينيه الا تلك القساوة المعهودة! النار المتوهجة هي التي جعلت ذلك النور الدافىء ينعكس من عينيه فتوهمت انها رأت فيهما تلك النظرات الواعدة، تلك النظرات التي كانت تحمل في طياتها يوما رسالة سرية، رائعة لا يجيد قراءتها احد كما تجيدها هي.

في تلك اللحظة دخلت اليزابيت تعتذر لأنها تأخرت حتى بردت قهوتها. كان في لهجتها لون من القلق. قالت انها ليزا التي كانت على الهاتف، لا تستطيع الحضور في اليوم التالي كما وعدت، حضر احد رجال الاعمال مع زوجته من نيويورك وعليها ان تشارك زوجها كليف باستقبالهما، تأمل ان تحضر بعد ظهر يوم الجمعة.

ظل آرثر جامدا في مكانه حتى انهت اليزابيت كلامها، ثم تمتم تمتمة غير مفهومة وخرج من الغرفة. غاصت اليزابيت في مقعدها بصمت تام، وأخذت تهز قدح القهوة وهي تحملق في النار. منذ اللحظة التي تكلمت فيها مع ابنتها بالهاتف تغيرت حالتها، وتلاشت كل السعادة التي كانت تملكتها بسبب عودتها الى بيتها القديم. وتفحصتها كارين وأحست بالقلق. كان من السهل الآن ان ترى تأثير المرض عليها... شحب وجهها وأثقل الكلل عينيها الزرقاوين، وتجلى التوتر في أصابعها النحيلة التي كانت تشد على القدح. ترى ما سبب فقدانها المفاجىء لمرحها وحيويتها؟ هل حدثتها ابنتها ليزا بما أزعجها، أم أن خيبة الامل من جراء تأخير اجتماع شمل العائلة هو السبب في ما ألم بها؟

قالت كارين بلطف:

«لماذا لا تأوين الى فراشك... لا شك انه كان يوما طويلا متعبا بالنسبة اليك».

أجابت اليزابيت بصوت ضعيف:

«حقا أشعر بالارهاق. هل تسمحين ان اتركك؟»

«بالطبع! هل استطيع ان اساعدك بشيء؟»

همت كارين بالوقوف، لكن ماجدا كانت أسبق منها فأخذت بيد اليزابيت وخرجت بها من الغرفة.

أعادت كارين ترتيب طاولة الطعام ثم انتقلت الى المطبخ واخذت تغسل الاطباق التي تراكمت هناك بعد وجبة العشاء. عادت ماجدا بعد قليل عاتبة، فما كان على كارين ان تتعب نفسها بذلك العمل. لكن كارين رفضت الا ان تقدم لها يد المساعدة في عملها الباقي، فشكرتها ماجدا وقالت ضاحكة:

«اشكر الله على وجودك معنا ولكم تساءلت كيف يمكنني وحدي ان اقوم بكل اعمال المنزل بدون مساعدة احد. انه بيت كبير كما ترين وليزا ليست من النوعية التي تحب تقديم المساعدة، بل بالعكس انها ترغب ان اقف على خدمتها بكل صغيرة وكبيرة، خاصة بعد ان تزوجت انسانا عالي المرتبة... وبعد فماذا يهم ان تزوجت الفتاة ابن امير أو ابن فلاح مادامنا سعيدين معا؟».

اصطنعت كارين ابتسامة وقالت:

«ذلك صحيح، والآن يحسن بي ان انصرف فقد يكون آرثر بانتظاري».

«أوه انه خرج قبل مدة وجيزة. اعتاد ان يتجول قليلا بعد العشاء، واحيانا يأخذ معه احد الكلاب. انصتي، انه هو ولا شك».

اتجهت كارين بنظرها ناحية الباب الذي فتح وظهر آرثر على عتبته، ارتفع صوته آمرا:

«تعالي يا كارو، رافقيني في جولتي الصغيرة وسنعود بعد قليل».

حاولت كارين ان ترفض لكن ماجدا ألحت قائلة:

«اخرجي معه، ان قليلا من الهواء الطلق يحرر النفس من الهم والتعب».

كان آخر ما تريده كارين في تلك اللحظة ان تخرج مع آرثر، لكن بدا ان ليس امامها مفر، خاصة وان ماجدا استمرت في الحاحها.

وتحركت كارين اخيرا باتجاه آرثر.

٦ - الصورة المظلمة

ألقى آرثر الشال الازرق الذي كان يحمله على كتفي كارين وشده عليها بقوة. لو ان احدا شاهدهما في تلك اللحظة لحسب انه حب الزوج لزوجته وعنايته بها. اما بالنسبة اليها فلم تر في تلك الا احدى صور علاقتهما الحالية الزائفة.

لم يتكلم وهو يغلق الباب خلفها ويقودها بعيدا عن مرمى النور الاصفر المنبعث من مصباح الباب الخارجي. كان الليل باردا معكرا يوحي باقتراب موجة من الصقيع، لكن الظلال الداكنة للشجيرات القريبة كانت تغري المرء بالتجول بينها. قادها آرثر بجانب جدار البيت الحاجب للريح حتى لاح لهما من خلال الظلام سياج الروضة الشائك، توقف آرثر هناك وقال:

«لا اريد ان ابقيك هنا طويلا، لكني اريد ان اتحدث اليك قليلا حيث لا يسمعنا احد».

اقتربت منه ونظرت في قسمات وجهه المعتمة وسألته:

«الم تحدثني بكل شيء بعد؟ مشكلة واحدة لا تزال تحتاج الى حل وانت تعرف ما هي».

هز كتفيه متنهدا وقال:

«اعتقد اننا لم ننجح حتى الآن في تنفيذ اتفاقيتنا كما يجب، أليس كذلك؟»

تصلب جسم كارين وقالت بهدوء:

«اني احذرك يا آرثر! لا تحاول ان تلومني على ذلك. انك لا تجعل الامر يسيرا بالنسبة الي».

«وانت ايضا لا تجعليه يسيرا بالنسبة الي! بالتأكيد انت تدركين...»

قاطعته قائلة:

«لحظة، لحظة، دعنا نوضح كل شيء. انا لم آت الى هنا لنبدأ

مجادلة اخرى او لاسمع اتهامات جديدة. لم يعد باستطاعتي ان اتحمل اكثر مما تحملت، بحق السماء حاول ان تفهم الامور وتعقل يا آرثر». «ولكن هل تعرفين شعوري انا؟ هل تحسين ان الامر ايسر بالنسبة الي؟»

قالت بائسة:

«لا اعرف، لكن الذي اعرفه ان الامر يزداد صعوبة كما اتصور. في الواقع بت اظن انه من الافضل لكلينا ان اغادر...»

قاطعها وقد ثارت ثائرته:

«كلا! كلا! يجب الا تذهبي، سيهدم ذلك كل ما اريد بناءه. اصغي يا كارين يجب ان نسوي هذا الامر قبل ان تسوء الحالة وتكتشف اليزابيت الحقيقة».

قالت كارين بمرارة:

«اخشى ان تكتشف الحقيقة بسبب بقائي هنا».

«لن تكتشف ذلك اذا تجاوزنا خلافاتنا وكففت انت عن اصرارك العنيد بخصوص الغرفتين المنفصلتين».

«انا مستعدة ان احافظ على وعدي، لكن ليس...»

امسك بذراعها وقال:

«كارو اسمعيني جيدا. انا اعرف بماذا تفكرين، لكن علينا ان نحل هذه المشكلة. الآن اصغي الي. سأبقى هنا مدة يومين فقط او يمكن ان اقول ليلتين، سأذهب بعد ذلك ولن اعود حتى يوم الثلاثاء، ومن ثم سأذهب ثانية في الاسبوع التالي وهكذا. على هذا فان وقتي هنا سيكون محدودا. تذكري هذا واتركي الامور على ما هي عليه، وانا اعدك بان لا اتطفل على حرية خلوتك».

وقفت صامتة غير قادرة على تقدير مدى الثقة التي تجرؤ ان تمنحها للوعد الذي قطعه على نفسه. كانت لهجته صادقة، لكن غريزتها حذرتها بان المسألة ليست بتلك السهولة، خاصة عندما يكونان قريبين جدا من بعضهما البعض وبينهما كراهية يمكن ان تثور لأي كلمة. تذكرت مشهد تلك الليلة التي اتى فيها الى البيت متأخرا

فتزلت اليه في محاولة ودية بريئة ضمن حدود الاتفاقية المعقودة بينهما، كما تذكرت ما حدث بينهما منذ ساعة تقريبا في غرفة النوم قبل دخول اليزابيث عليهما. كيف يستطيع آرثر ان يتصور امكانية مشاركتها اشد الغرف الفة، وهي غرفة النوم، كشخصين غريبين؟

احس آرثر بشكوكها فأرخى يده عن ذراعها وقال بلهجة واثقة:

«اسمعي، كل شيء كان بيننا انتهى، مات ولا يمكن استرجاعه، فهل تثقين بي على هذا الاساس؟»

هز كتفيه بيأس وراح ينظر في وجهها الذي غلبت عليه الحيرة. للحظة رهيبة طغت عليها رغبة جارفة في ان تلين وتستسلم. ارادت ان تصرخ طالبة منه الا يدع ما كان بينهما ينتهي، ارادت ان تقترب منه وتلمس خده، وتلتمس منه بصوت مجنون ملح: اليس بوسعنا ان نحاول من جديد...؟

لكنها كبحت جماح نفسها عندما تكلم عابسا، تسري برودة حقده الدفين في كلماته.

«اني اعدك ايضا، لأهون عليك الامر، ان اعمل كل ما استطيع للاسراع في اجراءات الطلاق، واؤكد لك اني لن اجعلك تعانين من الحاجة الى المال في مستقبل ايامك».

اجابته ببرود:

«لا تحاول ان ترشوني فانا لا اريد اي شيء منك».

«انا لا افعل ذلك من اجلك... او من اجلي، وانما من اجل اليزابيث».

في ذلك الوقت كانت ولولة الريح وحركة اوراق الشجيرات قد سكنت تماما. احتوى كارين وآرثر صمت مخيف يحمل بين طياته صدى قرع اجراس الموت. موت زواجهما. وتناهى الى مسمعها صوتها المتشنج وكأنه آت من مكان سحيق:

«انا كذلك... اعتقد ان هذا الامر بات مفهوما بشكل واضح».

استدارت بسرعة، فلم يعد بامكانها ان تحتمل اكثر من ذلك،

وراحت تتعثر على طول الممر المعتم باتجاه النور، وشعرت بخطوات آرثر خلفها فاخذت توسع خطاها، يائسة، لكنه لحق بها قبل ان تبلغ الباب:

«لحظة يا كارو، لا يكفي ما قلناه».

«ماذا تعني؟»

«لايجوز ان تندفعي هكذا الى داخل البيت وكأني ابغض مخلوق بالنسبة اليك، بالله عليك تذكري ماجدا!»

نظرت اليه باستغراب وسألت:

«وما شأن ماجدا في الموضوع؟»

«الم تدركي بعد اي نوع من النساء هي؟»

«لم افهم ما تقصد، ما علاقة ماجدا بأمرنا؟»

«يجب الا تلاحظ شيئا غير طبيعي في علاقتنا، انها شديدة الملاحظة وتنقل باخلاص كل صغيرة وكبيرة الى اليزابيث».

كان نور المصباح في تلك اللحظة قد سقط على وجهه فكشف مقدار التوتر في تقاطيعه، وسمعته يتابع حديثه.

«وهل علي ان اذكرك وانت اعرف الناس، بحق السماء هل نسيت؟»

تملكتها الحيرة وسرت في اوصالها قشعريرة من الخوف:

«وما ذلك الذي نسيته، اتعني ان ماجدا على بعض العلم بامرنا؟»

قال عابثا:

«لا ارجو ذلك، عملت جهدي لاقناعها بان تلك التي كانت في الصورة ليست انت، ولكنها...»

فقاطعته:

«الصورة!»

نظر اليها آرثر بامعان وخطوط القسوة تبدو على فمه:

«دعيك من هذا بحق الله يا كارين. لا تحاولي ايهامي بأنك لا تعرفين شيئا عن تلك الصورة. استطيع تقبل الكثير منك ولكن لا...»

«حسنا. ولكن كيف عرفت ماجدا بالصورة؟»

قال لها بشراسة:

«وقعت عليها صدفة فاتصلت بي تستفسر ان كنت انت التي تظهرين فيها».

جمدت كارين في مكانها ثم ترنحت واوشكت على السقوط. احاط آرثر كتفيها بيدين من الفولاذ. همست بيأس وهي تحاول ان تتمالك رشدها:

«لكني لا اعتقد ان كائنا من كان يمكن ان يتعرف علي، فالصورة كانت غير واضحة...»

انزلقت يداه تحت مرفقيها يسندها اليه:

«كارين تمالكي نفسك. اردت ببساطة ان احذرك فقط. كان ذلك الصباح كابوسا بالنسبة الي. اخبرت ماجدا بأن هناك آلاف الفتيات في لندن لهن شعر طويل يرف على وجوههن، ويرتدين معاطف بأردان من الفرو، اعرف اني اقنعتها في ذلك الحين. اما بالنسبة لي فعلى الرغم من ان ملامح وجهك لم تكن واضحة في الصورة، الا ان حقيبة يدك ذات الابزيم البارز التي كنت قد اهديتك اياها قبل ذلك بيومين او ثلاثة، وسلة التسوق الفخمة التي كنت وحدك تستعملينها... احمد الله ان ماجدا لم تنتبه الى ذلك».

اجتاحت كارين موجة من الدوار، قامت بمحاولة يائسة لتستعيد سيطرتها على نفسها وتنسحب من بين يدي آرثر، فسقط الشال على الارض، ترنحت وهي تستدير منحنية تتلمسه، لكنه كان اسرع منها فالتقطه ووضعه على كتفيها المرتعشتين وهمس:

«الافضل ان تدخلي فانت ترتعدين، وتذكري يجب ان تحترسي لنفسك دائما».

دخلت تتعثر كالعمياء، كان النور لا يزال يشع من المطبخ حيث شاهدت ماجدا تقف امام المغسلة، التفتت ماجدا مبتسمة وقالت:

«الجو اصبح باردا. بالطبع انه هنا ابرد منه في لندن، اتريدان مني

ان اعد لكما شيئا حارا؟»

لكن كارين لم تكن تريد الا ان تهرب بنفسها فهزت رأسها وقالت:

«كلا شكرا، اريد ان انهي ترتيب ملابسي».

وارتفع صوت آرثر قائلا:

«ان كنت متعبة فلا تنتظريني يا حبيبتي، سانشغل قليلا ببعض الامور التي يجب ان اقوم بها قبل ان آوي الى فراشي».

اصطنعت كارين ابتسامة وتمنت لماجدا ليلة طيبة وصعدت الى غرفتها. امضت نصف ساعة قبل ان تدب يائسة في فراشها، واخذت تحدث نفسها. ماذا لو تذكرت ماجدا امر تلك الصورة؟ لكن ما يهم لو تذكرت؟ ان آرثر سيتولى منعها من اعلام اليزابيث اي شيء بخصوصها. اليس كل ما يعمله من اجل اليزابيث؟

اما بالنسبة اليها فليس عندها ما تخسره. خسرت اهم ما يهمها منذ سنتين، خسرت آرثر واحترامه وثقته. استلقت على سريرها فريسة لآلام انفعالاتها التي استفاقت من جديد، كان من السهولة بمكان تجنب تلك الحماقة القديمة لو انها عملت بموجب خطتها لذلك الصباح المشؤوم فذهبت الى السوق لشراء بعض الحاجيات على الرغم من هطول المطر، لو عملت ذلك لفاتها الاستماع الى تلك المكالمة الهاتفية... الى ذلك النداء الذي دعاها بانفعال طالبا المساعدة... لو انها فقط لم تدع ستيفان اسي يؤخرها باصراره على تقديم ذلك الشراب الذي لم تكن ترغب فيه، لكانت خرجت قبل وصول المراسل والمصور الصحفي الى المشهد. دعتها غريزتها لان تندفع هاربة من ذلك المكان، فأثار هربها اهتمامها، فاقتنعا بأنها ولا ريب تلك الفتاة الغامضة التي ما زالت هويتها تشغل بال بعض الاوساط والعالم الفني على وجه الخصوص. لكن ماذا كان بمقدورها ان تفعل؟ لقد قطعت على نفسها عهدا ان تلوذ بالصمت وكيف يمكنها ان تنكث بذلك العهد؟

مضى وقت طويل قبل ان تخلد كارين الى نوم مضطرب، افضل

ما فيه ان آرثر وفى بوعده، فتركت المصباح القريب من السرير الآخر مضاء حتى لا يتخبط آرثر عند دخول الغرفة في الظلام. دخل بهدوء، لم يصدر عنه اي صوت سوى صوت الحركات الخفيفة وهو ينزع ملابسه ويتجه الى غرفة الحمام. عندما عاد تريث هنيهة حين مر بجانب سريرها، لكنه لم يتكلم ولم تبد هي اية اشارة تدل على انها تشعر بوجوده، وبعد لحظات اطفأ النور وخيم السكون الا من صوت تنفسه الخافت.

قربه الشديد منها جعل النوم عليها مستحيلا. كم مرة في منامها ويقظتها نقلتها احلامها الى ايام سعادتها الماضية تعيشها بخيالها فتتمنى وتشتاق. . . وها هو القدر، بشكل ما، جعل حلمها حقيقة واقعة لكن اقرب ما يكون الى الكابوس، لم تتصور قط ان تشارك آرثر ليلة اخرى على هذا النحو بقلب موجع يفصل بينهما واد سحيق من الحقد والضغينة، ما اقربه منها وما ابعده عنها. . .

بعد ساعات ايقظتها لمسة يد على كتفها فهبت بجفلة. كان الوقت صباحا واشعة الشمس تنساب عبر الكوة الزرقاء، كان آرثر يجلس على طرف سريرها مرتديا ثيابه، والى جانبها على الطاولة الصغيرة كان قدح من الشاي.

ما ان رآها تفتح عينيها حتى قال:

«احضرت ماجدا الشاي قبل قليل. لكني طلبت منها الا توقظك لانك نمت متعبة».

«نعم، كنت كذلك. . . شكرا».

اتكأت على الوسادة وسحبت الاغطية فوق كتفيها المكشوفتين.

شعرت بالاحراج الشديد اذ كانت ترتدي قميصا شفافا للنوم فلو نزلت من السرير لن يكون بمقدورها الكثير لتفعله دفاعا عن نفسها، لكن مخاوفها سرعان ما تبددت عندما سمعته يقول بخشونة:

«تبدين مخيفة».

ارتعشت يدها وهي ترفع القدح، فاعادته مكانه وقالت بصوت

غير متزن:

«لم انم جيدا»

«وهل كنت تصرخين في نومك؟»

«اصرخ؟»

«نعم، لماذا؟»

«لم اصرخ ابدا، اظنك كنت واهما».

«اذا فان وهمي ايقظني من نومي، فنهضت من سريري واتيت اليك خشية ان تكوني مريضة او بحاجة الى شيء ما. لكن يبدو ان اهتمامي لم يكن له مدعاة للترحيب».

فسألته وهي تتجنب النظر الى عينيه:

«هل كنت مهتما حقا؟»

«انا لست عديم الاحساس كما تعرفين».

«حسنا، ارجو الا يذهب بك الظن بعيدا فتتوهم اني كنت اذرف الدموع من اجلك».

وقف وهز رأسه ساخرا:

«نعم لم يعد هناك مجال لمثل هذا الظن يا كارين. اشربي الشاي قبل ان يبرد. سأراك عند الافطار».

تدفق الدمع من عينيها عندما خرج من دون ان يلقي نظرة الى الوراء. ليته كان في مقدورها ان تحصن نفسها ضد قسوته. جرعت الشاي وهي تشعر بعدم الرغبة لمواجهة ذلك اليوم الذي ينتظرها. دخلت غرفة الحمام، فاصابها هزة من الصورة التي عكستها المرآة، وجه ممتقع اللون، وعينان بللهما الدمع غارتا في تجويفين معتمي الظلال، وفم لا يقل شحوبا عن صفرة خديها.

خطرت لها فكرة الرجوع الى سريرها وعدم النزول الى الافطار، لكنها سرعان ما طرحت هذه الفكرة جانبا، لان ذلك لن ينقذها من مضايقات الجميع الذين سيهرعون للاطمئنان عليها.

لكن لم كل هذا القلق الذي ينتابها؟ الم تقنع نفسها خلال السنين

الماضيتين بان آرثر لا يستحق ان تحطم قلبها من اجله؟

لقد اراحت ضميرها عندما اخبرته بانها لم تقابل ستيفن اسبي الا في ذلك اليوم وانها لن تقابله مرة اخرى. اخبرته انها لم تقابل مطلقا صديقه الفنان الشهير فينس كاين الذي قتل بحادث مفجع فرّ السائق على اثره، لكن آرثر لم يصدقها . . . الانسان الوحيد الذي يستطيع ان يؤكد صحة اقوالها لا يستطيع بل لا يجرؤ ان يتكلم. . .

كان آرثر قد غادر البيت عندما نزلت الى غرفة الطعام الكبيرة. تناولت الافطار وحيدة، وما ان انتهت حتى دخلت اليزابيت بابتسامة عريضة تبدو عليها السعادة... وقبلت كارين بحرارة وحنان وقالت:

«سأتناول معك قدحا آخر من القهوة. لن اقبل بعد اليوم ان يجبرني احد على تناول وجبة الافطار في السرير».

تكلمت اليزابيت كثيرا عما يجب ان تجريه من اصلاح او تعديل في البيت قبل وصول ابنتها ليزا ثم قالت:

«يجب ان انقل حوائجي من غرفتي واعدها من اجل ليزا وكليف».

«غرفتك؟ غرفتك انت؟»

«نعم، سوف انتقل الى غرفة النوم الصغيرة المجاورة لغرفتك، لاني اريد ان اهيء لها غرفة نوم واسعة ومريحة ذات حمام مستقل حتى لا يضطر الى مشاركة ماجدا وتمزي الخادمتين غرفة حمام واحدة».

انحنت كارين قليلا الى الامام وقالت:

«كلا لن تفعلي ذلك آرثر لن يقبل ان تتركي غرفتك، لماذا لا نترك نحن غرفتنا الى ليزا وزوجها؟ انا مستعدة ان استعمل غرفة الحمام العامة».

لم توافق اليزابيت على اقتراح كارين واصرت على ان تنتقل هي من غرفتها، فقالت كارين:

«اعتقد ان آرثر سوف يعارض خطتك».

«كلا، لا اظن ذلك وسوف يوافق على خطتي المعقولة».

رن جرس الباب الخارجي وارتفعت اصوات الترحيب، وصلت تمزي.

اقبلت تمزي على اليزابيت تعانقها بحرارة، كانت امرأة ضخمة الجسم، صلبة العود، كثيرة الكلام والحركة، ونظرات عينيها الزرقاوين تنم عن الحيوية والطيبة، وابتساماتها كانت دافئة ودودة.

قدمتها اليزابيت الى كارين فمدت اليها يدها مصافحة. اسرعت ماجدا تعد الشاي. بينما انتقلت اليزابيت وتمزي الى غرفة الجلوس. اما كارين فاعتذرت وظلت مكانها تفكر في غرفة النوم. صممت ان تخليها الى ليزا وزوجها ظنا منها ان ذلك لن يزعج آرثر الذي تهمه صحة اليزابيت وراحتها، لم تضيع وقتا بل اتجهت الى السلم صاعدة الى غرفتها.

لم يستغرق منها اعادة حوائجها وحوائج آرثر الى الحقائب اكثر من ساعة. وعندما اوشكت على الانتهاء دخل آرثر الغرفة ثائرا:

«ماذا تفعلين بحق الشيطان؟»

وقبل ان تفوه بكلمة تقدم منها وامسكها بكتفيها وتابع قوله:

«ما معنى كل هذا؟ لاتقولي بأنك رجعت عن كلمتك التي قطعتها على نفسك، هل . . .»

كان يهزها بعنف فأمسكته من صدره وصرخت بصوت مكبوت:

«اصغ الي يا آرثر، انا لن. . . دعني اشرح لك!»

ارخى يديه عنها قليلا لكن عينيه ظلتا تقدحان شررا:

«اذن لماذا حزمت امتعتك؟ اظن اننا ناقشنا الامر بشكل جلي! هل تحاولين تهديم كل شيء؟»

«عندما تهدأ اشرح لك الموضوع».

فهم آرثر حقيقة الامر وبان عليه الارتياح. سره اهتمام كارين وتضحيتها بغرفتها الكبيرة والمريحة من اجل اليزابيت. وافق على رأيها وقادها الى الطابق الارضي ليريها غرف النوم القديمة الموجودة هناك.

اتفقا على الانتقال الى احداها. كانت غرفة مقبولة تطل على الحديقة. فتح آرثر النافذة لتهوية الغرفة فتطاير الغبار من النافذة التي مر عليها زمن طويل لم تفتح فيه درفتاها للهواء الطلق، واذا بكارين تصرخ متألمة وقد اصابت ذرات الغبار عينها.

اقبل آرثر مسرعا وامسك كتفيها قائلا:

«دعيني ارى».

اطاعت بشيء من عدم الرغبة، واختلست لحظة من لحظات الالفة عندما وضع يده تحت خدها ورفع وجهها وراح ينظر في عينيها. شاهد عينها المحمرة الدامعة، ففتح جفنيها بأصابعه وقال:

«رأيتها... لا تتحركي».

احست بألم حاد وهو يحاول ازالة ذرة سوداء من عينيها بطرف منديله وافلح في النهاية:

«احسن؟»

«نعم... اظن ذلك».

كانت انفاسه الناعمة تلفح خديها، واصابعه تداعب برفق صفحة ذقنها، ومرفقه يضغط على صدرها. اخذت منه المنديل لتمسح قطرة سالت من عينها الدامعة وتنفست متنهدة قبل ان تنسل مبتعدة عنه، غير انه ظل ممسكا بذراعها ملزما اياها لتنظر اليه وقال:

«آسف يا كارو، اني ادرك بان ما يحدث ليس سهلا بالنسبة لك كما انه ليس سهلا بالنسبة لي، واقول الحق لم اكن واثقا من انك ستوافقين على القدوم معي الى هنا».

اجابت بهدوء:

«لم تترك لي فرصة للاختيار».

«انت تعرفين، انا مستعد ان افعل اي شيء من اجل اليزابيت، فاعذريني يا كارو».

خفضت كارين نظراتها لتخفي ضعفها الذي كاد يخونها، وحنينها الذي كاد يفضح ذاته. كانت تعرف تماما مدى اخلاصه لاليزابيت

وتفانيه بالعناية بها، ولذا فعليها ان تتذكر فقط الدافع الحقيقي الذي حدا به ان يأتي بها الى هذا المكان، وان تعرف كيف تهرب من تأثيره عليها، تأثير نظراته، كلماته، لمساته، وقت ان تكون في اشد حالات الانفعال. عليها ان تخضع ذاتها للتصرف على هذا النحو... لكن استسلامها لعذاب لحظات مثل هذه التي تعانيها الان، لن يؤدي بها في النهاية الا الى مزيد من اوجاع القلب والاوهام الكاذبة.

قد يهم بها آرثر في اية لحظة، ان النظرات التي تطل من عينيه اشعرتها بذلك، وفي اية لحظة ايضا... قد تكتسح الرغبة عندها جدران كبريائها الباردة كما تكتسح العاصفة نبتة ضعيفة، لكن بعد ذلك، بعد ان تنحسر النشوة، فان آرثر سوف يتذكر... وسينصرف عنها محتقرا ذاته وحاقدا عليها...

سرت قشعريرة باردة في اوصالها فخلت يديه عنها ووقفت قرب النافذة وظهرها اليه. راحت تجاهد للتغلب على ضعفها. ازدردت ريقها بصعوبة وقالت بصوت منخفض:

«اعتقد باني افهمك، واشكرك لاعتذارك لي».

اقترب من كتفها وقال بصوت ضعيف:

«عندما دخلت الغرفة ورأيت الحقائب ظننت...»

«نعم، حسنا، لا تقلق. ثق باني لن ارجع عن كلمتي بهذه الطريقة من دون اي انذار».

استدارت كارين خارجة من الغرفة فتبعها آرثر قائلا:

«هل ترغبين في رؤية بقية غرف البيت؟ تعالي...».

رافقته الى غرفة اخرى فشاهدت مطرقة صغيرة معلقة على الحائط... عندما سألته عنها قال:

«اوه، انها مطرقة الريبة، يوجد واحدة اخرى مثلها».

نظر الى البعيد ثم ضحك وقال:

«لو تعرفين، كنت انا وليزا نستعملها قديما، كانت تصيب ليزا الكوابيس الليلية فتستيقظ مرتعبة، وغالبا ما كانت تصرخ عاليا...

خطرت لي فكرة. طلبت منها ان تطرق على الحائط ثلاث طرقات عندما تستيقظ فزعة من نومها اثر كابوس، فاستيقظ انا، وكنت انام في غرفة مجاورة لغرفتها، فاطرق بدوري على الحائط فيهدأ روعها، وكثيرا ما كنا نعاود الطرق مستأنسين بالانغام التي تحدثها الطرقات. استمر بنا الامر على هذه الحال مدة طويلة الى ان تخلصت ليزا نهائيا من كوابيسها».

سألته كارين:

«الم يكن صوت الطرق يزعج بقية اهل المنزل؟»

«لا اظن ذلك، هاتان الغرفتان كانتا في القسم الخلفي من المنزل وجدرانها صلبة. كم كانت اليزابيت تشكرني لاني اكتشفت شيئا يعيد الثقة الى نفس ابنتها ليزا ويخفف عنها تأثير كوابيسها المزعجة».

وتريث قليلا يتذكر الماضي ثم تابع:

«لا يمكنني ان انسى تجاربي الاولى مع كوابيس ليزا. بدأت وهي بعد في السابعة من عمرها، استفاقت مرة من نومها مذعورة ودخلت غرفة والديها تصرخ قائلة بانها رأت نفسها وسط نار متأججة، واخذت تنفض قميص نومها متوهمة ان النار لا زالت عالقة به».

استدار آرثر وانتقل برفقة كارين الى الغرفة التي كانت في يوم من الايام غرفة ليزا، واصبحت الآن غرفة ماجدا. كانت كارين تعرف الكوابيس لكن ليس بالبشاعة التي صورها لها آرثر. وقفت بالباب ونظرت الى داخل الغرفة النظيفة، فلم تشاهد اي اثر من آثار ليزا الا لوحة صغيرة ذات اطار مرصع بالخرز معلقة على الحائط. وابتسم آرثر قائلا:

«على اية حال، اذا اصاب الكابوس ماجدا او تمزي فان لديها وسيلة تشفيها منه».

لم تبتسم كارين، بل انهمكت تتخيل ليزا وآرثر يطرقان على الجدار بطرقتيهما. لكن لماذا كل هذا الحديث عن ليزا؟

٧ - إبرة الشك

من حظ كارين ان ذلك اليوم كان يوم عمل للجميع، اذ انشغل كل انسان في ما يخصه من عمل. انهمك آرثر في اصلاح ستائر النافذة، فجأة عبس وهو ينظر من زجاج النافذة المغبرة وسمعته يقول:

«ارجو الا تتجمد وهي تعمل في الخارج، يا الهي. . . انها تركع على ركبتيها تنتزع الاعشاب الضارة!»

اقتربت كارين من النافذة، كانت اليزابيت حقا تعمل في نزع الاعشاب الضارة التي نبتت بين شجيرات الورد المحيطة بالحوض الدائري في الناحية البعيدة من الحديقة، وكانت تمزي تقف الى جوارها تتفحص شجيرات الورد، وتقدم النصائح الى اليزابيت الراكعة على ركبتيها.

راقب آرثر المشهد لعدة لحظات ثم نظر الى كارين قائلا:

«هل تعدينني شيئا يا كارو؟»

«اذا كنت استطيع».

«أعرف ان آخر شيء يمكن ان تشكرني اليزابيت عليه هو ان اعاملها كطفلة مدللة، ولكن ليس بوسعي الكف عن القلق من اجلها، فهل تحاولين اقناعها بأن تعتني بنفسها ولا تعمل فوق طاقتها عندما اكون غائبا عن البيت؟»

«بالطبع سأفعل. . . ولست بحاجة للتوصية. لكن هل تظن من الحكمة ان نفعل ذلك؟ انها ولا شك افضل من يحكم على مدى احتمالها لما تقوم به من أعمال، وأعتقد ان عليك ادراك ذلك يا آرثر، والا فانك ستقوض ثقتها بنفسها والشجاعة العظيمة التي تمتلكها».

تنهد آرثر وسأل:

«كانت تحدثك بشؤونها، أليس كذلك؟»
«نعم».
«هكذا ظننت، حسنا، لن ألزمك بأن تخسري الثقة التي وضعتها فيك، لكن تذكري . . . أنا أعتمد عليك يا كارو».
كان في لهجته شيء من التحذير، ولمحت ذلك التحذير ثانية في عينيه صبيحة اليوم التالي قبل مغادرته البيت، عندما عانق اليزابيت والتفت اليها.
أحست بالتوتر، خشيت ان يمثل دور الزوج المحب فيودعها توديعا حارا امام اليزابيت، وكأنما تكهن بما كانت تفكر به، فلم يشأ ان يحرجها واكتفى بأن أمسك ذراعها وابتعد بها نحو السيارة قائلا:
«لا تنسي تعليماتي».
أومأت برأسها قائلة:
«لا حاجة بك الى القلق».
«سأتصل بك هاتفيا هذه الليلة. انهم جميعا ينتظرون مني ان افعل ذلك، وينتظرون مني الآن ان افعل هكذا. . .»
وقبل ان تفطن الى ما يعنيه، أحنى رأسه وشدها الى صدره بقوة وعانقها بحرارة، وعندما ابتعد عنها تمتمت من دون ان تنظر الى عينيه:
«لا تقلق، سوف نعتني باليزابيت».
ألقى حقيبة يده داخل السيارة وجلس وراء المقود قائلا:
«سأعود يوم الثلاثاء على أبعد حد».
بعد لحظة كانت السيارة تنطلق به. وقفت كارين التي فاجأتها معانقته، تراقب السيارة حتى اختفت عن الانظار. ثم تمالكت نفسها ورجعت الى البيت.
شعرت بالفراغ منذ اللحظة الاولى التي وطأت قدماها دلرسيك، والآن سيطر عليها شعور بالوحدة بسبب ذهاب آرثر. لكنها حاولت ان تقنع نفسها ان امامها بضعة ايام من الطمأنينة تستطيع فيها ان

تعوّد نفسها على معايشة محيطها الجديد، وتستقر فيه بغض النظر عن نصل العذاب المغروس ابدا في جسمها. الا انها كانت تتمنى في قرارة نفسها لو ان آرثر لم يغادر البيت، أو على الاقل لو بقي حتى وصول اخته واللقاء الأول بها بعد سنتين من الغياب.
حاولت كارين ان تسيطر على القلق الذي تملكها باقتراب يوم الجمعة، اذ ليس من سبب يدعوها ان تخشى الالتقاء بابنة اليزابيت. ان ليزا لا تدري شيئا عن الصدع الذي أصاب زواج اخيها بالشق، حتى لو علمت فليس من المحتمل ان توصل هذه الحقيقة الى امها، ذلك انه مهما كانت اخطاؤها فحبها واحترامها لأمها لم يكونا موضع شك، وآخر ما يمكن ان تتمناه هو ان تسبب لها الأذى. مع انها كانت مطمئنة لذلك. . . الا انها احست بالبرودة تسري في يديها، وبالرعشة تتمشى في أوصالها عندما شاهدت سيارة المرسيدس البيضاء الكبيرة تقترب من البيت بعد السادسة من مساء يوم الجمعة.
كان كليف طويل القامة نحيلا له شعر فضي ووجه نحيف، نزل من السيارة يراقب زوجته التي كانت تفتح ذراعيها لملاقاة الجميع وهي تصيح: «ماما يا حبيبتي».
كانت لا تزال جذابة كعهدها، طويلة، رشيقة، نحيلة القد، ترتدي ثوبا صوفيا قرمزي اللون. وعلى شعرها القصير الاشقر قبعة جلدية بلون ثوبها.
تقدمت ليزا من كارين فاتحة ذراعيها وعانقتها وهي تقول:
«هالو . . . كارو حبيبتي، ما أجمل ان أراك ثانية».
ثم نظرت حولها وسألتها:
«لكن اين آرثر؟»
«رجع الى لندن».
«كيف يجرؤ ان يغيب وهو يعلم اني قادمة؟»
أسرعت اليزابيت بالجواب قائلة:

الماضيتين بان آرثر لا يستحق ان تحطم قلبها من اجله؟

لقد اراحت ضميرها عندما اخبرته بانها لم تقابل ستيفن اسبي الا في ذلك اليوم وانها لن تقابله مرة اخرى. اخبرته انها لم تقابل مطلقا صديقه الفنان الشهير فينس كاين الذي قتل بحادث مفجع فرّ السائق على اثره، لكن آرثر لم يصدقها. . . الانسان الوحيد الذي يستطيع ان يؤكد صحة اقوالها لا يستطيع بل لا يجرؤه ان يتكلم. . .

كان آرثر قد غادر البيت عندما نزلت الى غرفة الطعام الكبيرة. تناولت الافطار وحيدة، وما ان انتهت حتى دخلت اليزابيت بابتسامة عريضة تبدو عليها السعادة... وقبلت كارين بحرارة وحنان وقالت:

«سأتناول معك قدحا آخر من القهوة. لن اقبل بعد اليوم ان يجبرني احد على تناول وجبة الافطار في السرير».

تكلمت اليزابيت كثيرا عما يجب ان تجريه من اصلاح او تعديل في البيت قبل وصول ابنتها ليزا ثم قالت:

«يجب ان انقل حوائجي من غرفتي واعدها من اجل ليزا وكليف».

«غرفتك؟ غرفتك انت؟»

«نعم، سوف انتقل الى غرفة النوم الصغيرة المجاورة لغرفتك، لاني اريد ان اهيء لهما غرفة نوم واسعة ومريحة ذات حمام مستقل حتى لا يضطر الى مشاركة ماجدا وتمزي الخادمتين غرفة حمام واحدة».

انحنت كارين قليلا الى الامام وقالت:

«كلا لن تفعلي ذلك آرثر لن يقبل ان تتركي غرفتك، لماذا لا نترك نحن غرفتنا الى ليزا وزوجها؟ انا مستعدة ان استعمل غرفة الحمام العامة».

لم توافق اليزابيت على اقتراح كارين واصرت على ان تنتقل هي من غرفتها، فقالت كارين:

«اعتقد ان آرثر سوف يعارض خطتك».

«كلا، لا اظن ذلك وسوف يوافق على خطتي المعقولة».

رن جرس الباب الخارجي وارتفعت اصوات الترحيب، وصلت تمزي.

اقبلت تمزي على اليزابيت تعانقها بحرارة، كانت امرأة ضخمة الجسم، صلبة العود، كثيرة الكلام والحركة، ونظرات عينيها الزرقاوين تنم عن الحيوية والطيبة، وابتسامتها كانت دافئة ودودة.

قدمتها اليزابيت الى كارين فمدت اليها يدها مصافحة. اسرعت ماجدا تعد الشاي. بينما انتقلت اليزابيت وتمزي الى غرفة الجلوس.

اما كارين فاعتذرت وظلت مكانها تفكر في غرفة النوم. صممت ان تخليها الى ليزا وزوجها ظنا منها ان ذلك لن يزعج آرثر الذي تهمه صحة اليزابيت وراحتها، لم تضيع وقتا بل اتجهت الى السلم صاعدة الى غرفتها.

لم يستغرق منها اعادة حوائجها وحوائج آرثر الى الحقائب اكثر من ساعة. وعندما اوشكت على الانتهاء دخل آرثر الغرفة ثائرا:

«ماذا تفعلين بحق الشيطان؟»

وقبل ان تفوه بكلمة تقدم منها وامسكها بكتفيها وتابع قوله:

«ما معنى كل هذا؟ لاتقولي بأنك رجعت عن كلمتك التي قطعتها على نفسك، هل...»

كان يهزها بعنف فأمسكته من صدره وصرخت بصوت مكبوت:

«اصغ الي يا آرثر، انا لن... دعني اشرح لك!»

ارخى يديه عنها قليلا لكن عينيه ظلتا تقدحان شررا:

«اذن لماذا حزمت امتعتك؟ اظن اننا ناقشنا الامر بشكل جلي! هل تحاولين تهديم كل شيء؟»

«عندما تهدأ اشرح لك الموضوع».

فهم آرثر حقيقة الامر وبان عليه الارتياح. سره اهتمام كارين وتضحيتها بغرفتها الكبيرة والمريحة من اجل اليزابيت. وافق على رأيها وقادها الى الطابق الارضي ليريها غرف النوم القديمة الموجودة هناك.

اتفقا على الانتقال الى احداها. كانت غرفة مقبولة تطل على الحديقة. فتح آرثر النافذة لتهوية الغرفة فتطاير الغبار من النافذة التي مر عليها زمن طويل لم تفتح فيه درفتاها للهواء الطلق، واذا بكارين تصرخ متألمة وقد اصابت ذرات الغبار عينها.

اقبل آرثر مسرعا وامسك كتفيها قائلا:

«دعيني ارى».

اطاعت بشيء من عدم الرغبة، واختلست لحظة من لحظات الالفة عندما وضع يده تحت خدها ورفع وجهها وراح ينظر في عينيها. شاهد عينها المحمرة الدامعة، ففتح جفنيها بأصابعه وقال:

«رأيتها... لا تتحركي».

احست بألم حاد وهو يحاول ازالة ذرة سوداء من عينيها بطرف منديله وافلح في النهاية:

«احسن؟»

«نعم... اظن ذلك».

كانت انفاسه الناعمة تلفح خديها، واصابعه تداعب برفق صفحة ذقنها، ومرفقه يضغط على صدرها. اخذت منه المنديل لتمسح قطرة سالت من عينها الدامعة وتنفست متنهدة قبل ان تنسل مبتعدة عنه، غير انه ظل ممسكا بذراعها ملزما اياها لتنظر اليه وقال:

«آسف يا كارو، اني ادرك بان ما يحدث ليس سهلا بالنسبة لك كما انه ليس سهلا بالنسبة لي، واقول الحق لم اكن واثقا من انك ستوافقين على القدوم معي الى هنا».

اجابت بهدوء:

«لم تترك لي فرصة للاختيار».

«انت تعرفين، انا مستعد ان افعل اي شيء من اجل اليزابيت، فاعذريني يا كارو».

خفضت كارين نظراتها لتخفي ضعفها الذي كاد يخونها، وحنينها الذي كاد يفضح ذاته. كانت تعرف تماما مدى اخلاصه لاليزابيت

وتفانيه بالعناية بها، ولذا فعليها ان تتذكر فقط الدافع الحقيقي الذي حدا به ان يأتي بها الى هذا المكان، وان تعرف كيف تهرب من تأثيره عليها، تأثير نظراته، كلماته، لمساته، وقت ان تكون في اشد حالات الانفعال. عليها ان تخضع ذاتها للتصرف على هذا النحو... لكن استسلامها لعذاب لحظات مثل هذه التي تعانيها الان، لن يؤدي بها في النهاية الا الى مزيد من اوجاع القلب والاوهام الكاذبة.

قد يهم بها آرثر في اية لحظة، ان النظرات التي تطل من عينيه اشعرتها بذلك، وفي اية لحظة ايضا... قد تكتسح الرغبة عندها جدران كبريائها الباردة كما تكتسح العاصفة نبتة ضعيفة، لكن بعد ذلك، بعد ان تنحسر النشوة، فان آرثر سوف يتذكر... وسينصرف عنها محتقرا ذاته وحاقدا عليها...

سرت قشعريرة باردة في اوصالها فخلت يديه عنها ووقفت قرب النافذة وظهرها اليه. راحت تجاهد للتغلب على ضعفها. ازدردت ريقها بصعوبة وقالت بصوت منخفض:

«اعتقد بأني افهمك، واشكرك لاعتذارك لي».

اقترب من كتفها وقال بصوت ضعيف:

«عندما دخلت الغرفة ورأيت الحقائب ظننت...»

«نعم، حسنا، لا تقلق. ثق باني لن ارجع عن كلمتي بهذه الطريقة من دون اي انذار».

استدارت كارين خارجة من الغرفة فتبعها آرثر قائلا:

«هل ترغبين في رؤية بقية غرف البيت؟ تعالي...».

رافقته الى غرفة اخرى فشاهدت مطرقة صغيرة معلقة على الحائط... عندما سألته عنها قال:

«اوه، انها مطرقة الريح، يوجد واحدة اخرى مثلها».

نظر الى البعيد ثم ضحك وقال:

«لو تعرفين، كنت انا وليزا نستعملها قديما، كانت تصيب ليزا الكوابيس الليلية فتستيقظ مرتعبة، وغالبا ما كانت تصرخ عاليا...

خطرت لي فكرة. طلبت منها ان تطرق على الحائط ثلاث طرقات عندما تستيقظ فزعة من نومها اثر كابوس، فاستيقظ انا، وكنت انام في غرفة مجاورة لغرفتها، فاطرق بدوري على الحائط فيهدأ روعها، وكثيرا ما كنا نعاود الطرق مستأنسين بالانغام التي تحدثها الطرقات. استمر بنا الامر على هذه الحال مدة طويلة الى ان تخلصت ليزا نهائيا من كوابيسها».

سألته كارين:

«الم يكن صوت الطرق يزعج بقية اهل المنزل؟»

«لا اظن ذلك، هاتان الغرفتان كانتا في القسم الخلفي من المنزل وجدرانها صلبة. كم كانت اليزابيث تشكرني لاني اكتشفت شيئا يعيد الثقة الى نفس ابنتها ليزا ويخفف عنها تأثير كوابيسها المزعجة».

وتريث قليلا يتذكر الماضي ثم تابع:

«لا يمكنني ان انسى تجاربي الاولى مع كوابيس ليزا. بدأت وهي بعد في السابعة من عمرها، استفاقت مرة من نومها مذعورة ودخلت غرفة والديها تصرخ قائلة بانها رأت نفسها وسط نار متأججة، واخذت تنفض قميص نومها متوهمة ان النار لا زالت عالقة به».

استدار آرثر وانتقل برفقة كارين الى الغرفة التي كانت في يوم من الايام غرفة ليزا، واصبحت الآن غرفة ماجدا. كانت كارين تعرف الكوابيس لكن ليس بالبشاعة التي صورها لها آرثر. وقفت بالباب ونظرت الى داخل الغرفة النظيفة، فلم تشاهد اي اثر من آثار ليزا الا لوحة صغيرة ذات اطار مرصع بالخرز معلقة على الحائط. وابتسم آرثر قائلا:

«على اية حال، اذا اصاب الكابوس ماجدا او تمزي فان لديها وسيلة تشفيها منه».

لم تبتسم كارين، بل انهمكت تتخيل ليزا وآرثر يطرقان على الجدار بطرقتيهما. لكن لماذا كل هذا الحديث عن ليزا؟

٧ - إبرة الشك

من حظ كارين ان ذلك اليوم كان يوم عمل للجميع، اذ انشغل كل انسان في ما يخصه من عمل. انهمك آرثر في اصلاح ستائر النافذة، فجاة عبس وهو ينظر من زجاج النافذة المغبرة وسمعته يقول:

«ارجو الا تتجمد وهي تعمل في الخارج، يا الهي... انها تركع على ركبتيها تنتزع الاعشاب الضارة!»

اقتربت كارين من النافذة، كانت اليزابيث حقا تعمل في نزع الاعشاب الضارة التي نبتت بين شجيرات الورود المحيطة بالحوض الدائري في الناحية البعيدة من الحديقة، وكانت تمزي تقف الى جوارها تتفحص شجيرات الورد، وتقدم النصائح الى اليزابيث الراكعة على ركبتيها.

راقب آرثر المشهد لعدة لحظات ثم نظر الى كارين قائلا:

«هل تعدينني شيئا يا كارو؟»

«اذا كنت استطيع».

«أعرف ان آخر شيء يمكن ان تشكرني اليزابيث عليه هو ان اعاملها كطفلة مدللة، ولكن ليس بوسعي الكف عن القلق من أجلها، فهل تحاولين اقناعها بأن تعتني بنفسها ولا تعمل فوق طاقتها عندما اكون غائبا عن البيت؟»

«بالطبع سأفعل... ولست بحاجة للتوصية. لكن هل تظن من الحكمة ان نفعل ذلك؟ انها ولا شك افضل من يحكم على مدى احتمالها لما تقوم به من أعمال، وأعتقد ان عليك ادراك ذلك يا آرثر، والا فانك ستقوض ثقتها بنفسها والشجاعة العظيمة التي تمتلكها».

تنهد آرثر وسأل:

«كانت تحدثك بشؤونها، أليس كذلك؟»
«نعم».
«هكذا ظننت، حسنا، لن ألزمك بان تخسري الثقة التي وضعتها فيك، لكن تذكري . . . أنا أعتمد عليك يا كارو».
كان في لهجته شيء من التحذير، ولمحت ذلك التحذير ثانية في عينيه صبيحة اليوم التالي قبل مغادرته البيت، عندما عانق اليزابيت والتفت اليها.
أحست بالتوتر، خشيت ان يمثل دور الزوج المحب فيودعها توديعا حارا امام اليزابيت، وكأنما تكهن بما كانت تفكر به، فلم يشأ ان يحرجها واكتفى بأن أمسك ذراعها وابتعد بها نحو السيارة قائلا:
«لا تنسي تعليماتي».
أومأت برأسها قائلة:
«لا حاجة بك الى القلق».
«سأتصل بك هاتفيا هذه الليلة. انهم جميعا ينتظرون مني ان افعل ذلك، وينتظرون مني الآن ان افعل هكذا . . .»
وقبل ان تفطن الى ما يعنيه، أحنى رأسه وشدها الى صدره بقوة وعانقها بحرارة، وعندما ابتعد عنها تمتمت من دون ان تنظر الى عينيه:
«لا تقلق، سوف نعتني باليزابيت».
ألقى حقيبة يده داخل السيارة وجلس وراء المقود قائلا:
«سأعود يوم الثلاثاء على أبعد حد».
بعد لحظة كانت السيارة تنطلق به. وقفت كارين التي فاجأتها معانقته، تراقب السيارة حتى اختفت عن الانظار. ثم تمالكت نفسها ورجعت الى البيت.
شعرت بالفراغ منذ اللحظة الاولى التي وطأت قدماها دلرسيك، والآن سيطر عليها شعور بالوحدة بسبب ذهاب آرثر. لكنها حاولت ان تقنع نفسها ان امامها بضعة ايام من الطمأنينة تستطيع فيها ان

تعوّد نفسها على معايشة محيطها الجديد، وتستقر فيه بغض النظر عن نصل العذاب المغروس ابدا في جسمها. الا انها كانت تتمنى في قرارة نفسها لو ان آرثر لم يغادر البيت، أو على الاقل لو بقي حتى وصول اخته واللقاء الأول بها بعد سنتين من الغياب.
حاولت كارين ان تسيطر على القلق الذي تملكها باقتراب يوم الجمعة، اذ ليس من سبب يدعوها ان تخشى الالتقاء بابنة اليزابيت. ان ليزا لا تدري شيئا عن الصدع الذي أصاب زواج اخيها بالشق، حتى لو علمت فليس من المحتمل ان توصل هذه الحقيقة الى امها، ذلك انه مهما كانت اخطاؤ ها فحبها واحترامها لأمها لم يكونا موضع شك، وآخر ما يمكن ان تتمناه هو ان تسبب لها الأذى. مع انها كانت مطمئنة لذلك . . . الا انها احست بالبرودة تسري في يديها، وبالرعشة تتمشى في أوصالها عندما شاهدت سيارة المرسيدس البيضاء الكبيرة تقترب من البيت بعد السادسة من مساء يوم الجمعة.
كان كليف طويل القامة نحيلا له شعر فضي ووجه نحيف، نزل من السيارة يراقب زوجته التي كانت تفتح ذراعيها لملاقاة الجميع وهي تصيح: «ماما يا حبيبتي».
كانت لا تزال جذابة كعهدها، طويلة، رشيقة، نحيلة القد، ترتدي ثوبا صوفيا قرمزي اللون. وعلى شعرها القصير الاشقر قبعة جلدية بلون ثوبها.
تقدمت ليزا من كارين فاتحة ذراعيها وعانقتها وهي تقول:
«هالو . . . كارو حبيبتي، ما أجمل ان أراك ثانية».
ثم نظرت حولها وسألتها:
«لكن اين آرثر؟»
«رجع الى لندن».
«كيف يجرؤ ان يغيب وهو يعلم اني قادمة؟»
أسرعت اليزابيت بالجواب قائلة:

«توقّع الا تتأخري حتى اليوم. لكن تأخرت فاضطر الى الذهاب وسيعود الثلاثاء».

دخل الجميع الى البيت وتطوعت كارين بارشاد كليف وزوجته الى غرفتها التي اخلتها هي وآرثر من اجلهما.

كانت نهاية الاسبوع متعبة بالنسبة الى كارين. في مساء السبت اتصل آرثر بالهاتف، فأخبرته كارين بمجيء اخته وزوجها وعن خيبة الأمل التي اصابت اخته بسبب تغيبه عن البيت، فقال:

«أوه، لم يكن لدي متسع من الوقت لاعلامها عن اضطراري للسفر، هل هي عندك الآن؟»

«كلا، ذهبت برفقة كليف في جولة قصيرة».

«هل بدأت تشعر بالضيق في دلرسيك؟»

«لا اعتقد ذلك. يبدو انها سعيدة جدا لكونها في البيت».

«حسنا يكفي هذا الآن والى اللقاء يوم الثلاثاء».

كان ذلك كل شيء، وضعت كارين السماعة ببطء. لم يكن لمشاعرها اية اهمية لدى آرثر، حتى ولم يتظاهر بذلك على الهاتف اثناء مكالمته، لكن أليس من الحماقة ان تتوقع منه شيئا من هذا القبيل؟

تغير الطقس صباح الأحد. هبت رياح شديدة وانهمر المطر. كان كليفورد وزوجته برفقة كارين يجلسون في غرفة الجلوس عندما نظرت ليزا فجأة نحو كارين وسألت:

«كارين، هل تظنين ان امي على وشك ان تموت؟»

«لا أعرف... أرجو وأصلي ألا يحدث ذلك».

استطردت ليزا بصوت مكمود:

«لم اكن اصدق حتى عندما سمعت ما قاله الاطباء، لكنني الآن بت اظن ذلك».

تخلى كليفورد عن هدوئه وقال:

«بحق الله، لماذا انت متشائمة الى هذا الحد يا ليزا؟»

«لأن ما أقوله صحيح».

قفز كليفورد من مكانه واقترب من زوجته واضعا يديه على كتفيها، وقال منفعلا:

«من الصعب ان تتأكدي مما تقولين! اصغي يا ليزا، لا شيء صحيح حتى يحدث، ولم يحدث شيء حتى الآن. هل ترغبين في قدح من الشراب؟»

«كلا شكرا!»

«وأنت يا كارين؟»

«وأنا كذلك. شكرا».

«واذن فأنا ذاهب لاعد لي كأسا».

خرج من الغرفة تاركا ليزا تحملق في الباب بذهول. احست كارين برعشة فزع وهي تنظر الى وجه ليزا الممتقع، فنهضت من مقعدها واقتربت منها قائلة:

«هل انت بخير؟»

اجفلت ليزا مستفيقة من حالة الشرود التي سيطرت عليها هنيهة وقالت:

«نعم انا بخير. لا تشغلي بالك بي، أظن اني بحاجة الآن الى كأس من الشراب».

هبت ليزا مسرعة وخرجت من الغرفة تاركة كارين في تفكير عميق. لم تكن تلك المرة الوحيدة التي تخرج فيها ليزا بمثل هذه السرعة عندما تجد نفسها وحيدة مع كارين، في الواقع فان ليزا كانت تتجنبها كأنما تخاف شيئا... غاصت كارين في مقعدها وراحت تحدق في نار الموقد. لا شك انها مخطئة في تخمينها. لا يمكن ان تتهرب ليزا من الانفراد بها عن عمد. لا بد ان يكون ذلك بمحض الصدفة، بالتأكيد فان ليزا لا يمكن ان تتصور بعد هذا الوقت الطويل ان كارين من الممكن ان... وبحركة مفاجئة تناولت الصحيفة التي كان تركها كليفورد على الطاولة، وراحت تقلب صفحاتها لتهرب من تخيلاتها وتعيد الى اعصابها الهدوء والسكينة.

قبل انقضاء يوم آخر اقتنعت كارين تماما بأنها لم تكن مخطئة في

تخيلاتها. وجدت نفسها وحيدة مع ليزا في مناسبتين، وفي كلتيهما كانت ليزا تختلق لنفسها عذرا للانصراف بسرعة، فلم يعد لديها مجال للشك في ان ليزا تتجنبها عمدا.

تنهدت كارين عميقا وقررت ان تصرف تلك الحقيقة عن تفكيرها، فانها منذ المرة الاولى التي قابلت فيها ليزا شعرت بأن هناك حاجزا غير مرئي يحول بينهما ويمنع تقرب الواحدة من الاخرى. كان باستطاعة ليزا ان تكون حلوة دمثة عندما يتطلب الظرف، ويمكنها ان تكون لطيفة عندما تريد شيئا، لكنها لم تكن تحس بعاطفة صادقة الى اي من بنات جنسها. كانت ميولها محصورة بالجنس الآخر، تفضل ان تميل اليها قلوب الرجال. ونقطة ضعف امها الوحيدة، انها لم تكن ترى في ابنتها اي خطأ على الاطلاق. كانت بالنسبة لامها اغلى ما في الوجود. مرجع ذلك ان اليزابيت فقدت قدرتها على الانجاب اثر ولادتها لابنتها، تلك الولادة التي كادت ان تودي بحياتها، والتي ايقنت من بعدها، هي وزوجها جيمس، ان الصبي الذي طالما تشوقا الى ان يرزقا به، لن يكون. . . حتى ذلك اليوم الذي دخل فيه ذلك الصبي الصغير، البائس، المنبوذ الى بيتهما وقلبيهما.

لأول مرة تساءلت كارين في نفسها عن شعور ليزا تجاه ذلك الصبي الغريب الذي اقتحم دنياها طيلة السنين الماضية. هل امتعضت منه؟ هل اغتاظت من تطفل ذلك المخلوق الذي بات يشاركها الحب والحظوة اللذين كانا من حقها وحدها؟ لكن مهما كان رأيها في اتخاذ أخ اكبر منها سنا كواقع دائم في حياتها، فانها سرعان ما قبلت به كواحد من رعايا مملكتها، وسرعان ما منحها هو التدليل والحماية. حتى بعد زواجها ظلت على صلتها الوثيقة بأخيها المتبنى، تلجأ اليه كلما اعترضتها مشكلة طالبة منه النصيحة والمساعدة اللتين لم تكن تطلبهما من زوجها. سرحت كارين بأفكارها الى تلك الاشهر القليلة التي عاشتها مع آرثر، واستذكرت تلك المناسبات العديدة التي كانت تظهر ليزا فيها فجأة . . . قائلة بانها ستختطف منها أخاها

بعض الوقت، فتنفرد به تستمع الى نصحه وارشاده. كانت تعتبره معصوما عن الخطأ. وكان آرثر بدوره يعاملها بالحب والحنان، ويسبغ عليها جوا من الحماية كأنه شقيقها المولود من أبويها. مع ذلك. . . هل كان شعور ليزا نحو آرثر اعمق من مجرد شعور نحو أخ؟ شعور لم تدرك حقيقة كنهه حتى الآن؟

سرت في جسدها قشعريرة باردة، وراحت بيأس تحاول جاهدة ان تقصي تلك الفكرة التي سيطرت على مخيلتها، فكرة ان ليزا لم تكن تحب آرثر حبًا اخويا وانما كانت تعشقه كرجل.

أبت تلك الفكرة المخيفة ان تفارقها، علما ان ليس في الامر غرابة أو شذوذ، فالقربى التي تربط بينهما ليست صلة دم لتحرم ذلك الحب. فاذا صح ظنها لاتضحت لها أمور كثيرة حيرتها واربكتها في أعقاب تلك الايام المريرة التي مرت عليها سنتان. . .

تساءلت في نفسها ماذا عن آرثر؟ هل خطر بباله ما كانت ليزا تحس به نحوه؟ ارتعشت من جديد وهي تشعر من اعماقها بانه مهما كانت طبيعة ما تحس به ليزا نحو آرثر، فان ذلك لم يلق من قلبه أي استجابة مماثلة. ان آرثر احبها هي حبا عنيفا ادى الى زواجهما، على الرغم من ان ذلك الحب لم يدم طويلا. . .

انهارت قطعة حطب وسط الجمرات المغطاة بالرماد، فتطاير منها شرر متوهج عبر الموقد، مما جعل كارين تجفل وتعود من شرودها الى الحاضر. اخذت الملقط وانهمكت تعيد الشظايا التي انبعث منها الدخان الى وسط الموقد، وفجأة استدارت الى الخلف عندما سمعت صوت تمزي التي دخلت قائلة:

«شكرا لله على اني وجدت احدا في المنزل، أتعرفين اين يمكن ان اجد بعض أقراص الاسبرين؟»

أمعنت كارين النظر في وجه تمزي الذي كانت تبدو عليه علائم القلق، وقالت:

«أظن ان لدي بعض الاقراص، هل تشعرين بصداع يا تمزي؟»

«كلا، لكن السيدة اليزابيت تعاني من قشعريرة برد شديدة».
اصفر لون كارين وهتفت بفزع:
«آه، كلا، متى كان ذلك؟»
«ذهب الجميع الى القرية وظننت انك معهم. صعدت الى السيدة لاسألها ان كانت لديها الرغبة في قدح من الشاي، فوجدتها محمرة الوجه محمومة لا تقوى على الكلام. كان صوتها مبحوحا في الصباح، لكنها قالت انها بخير».

صعدت كارين بسرعة ورجعت ببعض اقراص الاسبرين، فوجدت تمزي تعد كأسا من الليمون ثم صعدتا الى غرفة اليزابيت.

كانت مستلقية في سريرها وعلى كتفيها شال من الصوف، ممتقعة الوجه تتوسط كلا من خديها بقعة دائرية شديدة الاحمرار.

ابتسمت اليزابيت عندما رأت كارين واستندت متعبة على الوسائد. وقالت بصوت غلبت عليه البحة:
«سأكون احسن حالا في الصباح».

نظرت اليها كارين متفحصة ولمست بظهر يدها جبينها الحار الجاف، وأمسكت برسغها تعد النبضات.

همست اليزابيت:
«إنك تبدين محترفة، لم أكن أدري انك كنت ممرضة يا حبيبتي».
«أمي كانت ممرضة وتعلمت منها بعض الاسعافات الاولية. حرارتك مرتفعة وأود لو يفحصك الطبيب، على الاقل لندرأ عنا غضب آرثر عندما يعود غدا».

وافقت اليزابيت وحضر الطبيب بعد السادسة بقليل. كان طبيب القرية منذ اكثر من ثلاثين عاما، واليزابيت تعرفه معرفة جيدة. أعطاها بعض الحبوب، وقال بأنه سيعود في الصباح التالي.

رجع الجميع من القرية وعندما علمت ليزا بالنبأ اصابتها هزة شديدة. صعدت تركض الى غرفة أمها. امضت طيلة المساء تصعد وتهبط الدرجات بين غرفة والدتها وغرفة الجلوس، حتى نفد صبر

زوجها وقال:
«بالله عليك يا حبيبتي، اما ان تجلسي بهدوء الى جانب والدتك او تبقين هنا وتتركين لها فرصة لتنام. ان تصرفك هذا يجعلها عشر مرات أسوأ مما هي عليه الآن».

اقتنعت ليزا بما قاله زوجها. جلست معه برفقة كارين وما جدا يلعبون بالورق حتى العاشرة، ثم انصرف كل منهم الى شأنه، وآثرت كارين ان تنام مبكرة فتوجهت الى غرفتها.

كانت ساعات تلك الليلة طويلة معتمة، لكنها شعرت بالارتياح عندما استفاقت من نومها المتقطع لترى نور الفجر وقد أخذ يرفع ستائر الظلام عن الأفق الفسيح، كان الوقت يقارب السادسة صباحا عندما سمعت أول حركة تدل على ان البيت بدأ يستيقظ من سباته العميق.

دخلت الى الحمام لتريح نفسها من آثار تلك الليلة المضنية، وعندما خرجت رأت ماجدا تظهر من احد جوانب البيت، فتقدمت منها وسألتها بقلق عن حال اليزابيت فأجابتها قائلة:
«أمضت ليلة هادئة، وهي تظن ان باستطاعتها تناول قطعة من الخبز والمربى، ادخلي واطمئني بنفسك».

غمرت كارين موجة من الارتياح وبدون تردد توجهت نحو غرفة اليزابيت، طرقت الباب بلطف ثم دخلت. كان يبدو على المريضة شيء من التحسن، لكن صوتها كان لا يزال مبحوحا وان بدا اكثر قوة عندما قالت:
«أراك استيقظت مبكرة يا حبيبتي. هل انت على ما يرام؟»

هزت كارين رأسها وانحنت باندفاع لتقبل اليزابيت التي اشاحت بوجهها قائلة:
«لا تقتربي مني يا حبيبتي... كنت اخبرت ماجدا قبل قليل انه من الخير للجميع ان يبتعدوا عني حتى اتخلص من هذه الحمى ولا تنتقل اليهم العدوى. ستعتني بي تمزي فالجراثيم لا تؤثر بها!»

ابتسمت كارين قائلة:

«هل استطيع ان اقدم لك اية خدمة؟»

«كلا يا حبيبتي، تمزي غسلت وجهي ويديّ واعتنت بي كأني طفلة صغيرة. ستقدم لي ماجدا طعام الافطار، اذهبي انت وتناولي طعامك».

شعرت كارين بالسعادة وهي تستمع الى كلمات اليزابيت التي تجلى فيها حنان الأمومة، وقبل ان ترد بكلمة سمعت صوت سيارة تقف امام البيت. أزاحت الستائر بشيء من الدهشة، وكتمت صرخة ضعيفة كادت تنبعث من حلقها الجاف. كانت سيارة حمراء داكنة تقف في الباحة، سيارة مألوفة، سيارة آرثر!

نزل آرثر من السيارة وصفق بابها خلفه وبدأ يعبر الباحة الأمامية. ثم توقف فجأة حينها انطلقت فتاة من البيت تركض باتجاهه وخصلات شعرها الذهبية تهفهف مع هبات نسيم الصباح، والقت بنفسها بين ذراعيه.

كانت تلك الفتاة هي ليزا.

ارتفعت يد كارين المرتعشة الى عنقها، وسمعت اليزابيت تسألها:

«ماذا هناك؟»

«انه آرثر... عاد مبكراً».

نطقت بصوت متهدج كأنه لم يكن صوتها، واحست بألم حاد في معدتها كأنما اصيبت بطعنة. استطاعت ان ترى وجه ليزا وهو يلتصق بكتف آرثر وقد انعكس عنه وهج عاطفة طاغية، وراحت يداها الناعمتان تتلمسان عنقه، أما آرثر فكان بدوره يطوقها بيديه القويتين ويشدها الى صدره...

احست كارين بالغرفة تدور بها، وامسكت بطرف الطاولة خشية السقوط. سقط آخر حجاب عن عينيها، ان شكها المحموم غير القابل للتصديق كان حقيقة واقعة.

كانت ليزا تهوى آرثر...

٨ - تحت شلال الغيرة

لم تعد كارين تذكر كيف انتقلت من غرفة اليزابيت الى غرفتها. كل ما تذكره هو ذلك الغضب الذي صدع رأسها وتركها منهوكة مرتعدة. كل ما بانت تراه هو صورة ذينك الشخصين المتعانقين التي حفرتها نار الغيظ في مخيلتها. كيف تجرؤ ليزا ان تحتضن آرثر بتلك الطريقة الخليعة التي تسخر من كل ما كانت تبديه سابقا من مظاهر الحياء لأخيها واعجابها به، أليس لديها ذرة من وازع أو ضمير؟

أطبقت يديها بشدة فانغرست اظافرها براحتي يديها من شدة الغضب لا فائدة ترجى من اقناع نفسها ان ما شاهدته في الخارج كان نتيجة لألم ليزا وقلقها على امها، أو تعبيرا عن شعورها بالطمأنينة في هذا الظرف لوجود آرثر الى جانبها، وثقتها بقوته التي يمكن ان تستند اليها عند الازمات.

كلا ان الأمر أسوأ من ذلك بكثير، فالبعد بين هذه العواطف الانسانية العفوية وبين تلك التي ارتسمت على وجه ليزا عند احتضانها آرثر.. يتجاوز بعد القطبين. وماذا عن آرثر؟

جلست على طرف سريرها واستغرقت في التفكير. لو ان آرثر كان يجهل طبيعة شعور ليزا نحوه، فإنه ولا شك اصبح يفهمه الآن بعد لقائه بها هذا الصباح.

بغتة ارتفع صوت يناديها ثم انفتح الباب، وظهر آرثر على عتبته تتجلى على وجهه معالم الغضب وصاح:

«اذن انت هنا! لماذا لم تعلميني؟»

هبت كارين واقفة وانفجرت تقول:

«لماذا لم أعلمك؟ كيف تجرؤ ان تقتحم عليّ الغرفة وتصرخ في وجهي كأني احدى تابعاتك؟ بعد...»

قطع عليها الحديث قائلا وهو يلقي بمحفظته وسترته فوق السرير:
«اما انك لم تعتبري الأمر خطيرا أو انك لم تهتمي به اصلا. لو لم تتصل بي ليزا هاتفيا الليلة الماضية...»
«اذن كانت ليزا! كان عليّ ان اعرف ذلك!»
لأول مرة منذ اقتحامه غرفتها وقف يمعن فيها النظر وكأنه فهم قصدها وسأل:
«كان عليك ان تعرفي ذلك! تعرفين ماذا؟»
«لا حاجة بك الى ان تسأل، ارجع بذاكرتك خمس دقائق الى الوراء لتعرف الجواب».
أفلتت الكلمات المريرة غير المحترسة من فمها دون ان تقوى على كبتها. حلق فيها آرثر وصاح:
«عما تتحدثين بحق الشيطان؟»
«أتحدث عن ليزا! عن تسللها الى الهاتف بعد ان ناقشنا الموضوع جميعا وقررنا ان الامر ليس بالخطورة التي تستوجب استدعاءك».
على الرغم من محاولاتها للمحافظة على اتزانها فان صوتها كان يرتفع تدريجيا وأردفت تقول:
«وانا اتحدث عن ليزا التي الفت بنفسها بين ذراعيك قبل قليل على مشهد من الجميع! كأنها... كأنها...»
لم يقو على الصبر فاتخذ خطوة الى الأمام وأظلمت عيناه ولوى فمه باحتقار:
«يالله! اذن هكذا! تعتين انك رأيت... انك اعتقدت...!»
وشهق مهتاجاً وأفلتت منه ضحكة خشنة وتابع:
«من المستحيل تصديق ذلك».
«أحقا؟»
صرّ بأسنانه وقال:
«لماذا لا تقولينها اذن؟ لماذا لا تتهميني صراحة بحب ليزا؟»
أحست بالخوف من العنف الذي تجلى في صوته، لكنها واجهته

بكبرياء وقالت:
«لم أذكر ذلك».
«لكن كلماتك تتضمن ذلك».
جمع قبضة يده كأنه يهم بضربها واردف:
«يا الهي! كثير ان يصدر عنك انت بالذات من دون كل الناس مثل هذا القول!»
تراجعت كارين، كانت كلماته أشد وقعا عليها من السياط واستدارت خوفا من ان يرى دموعها، لكنه أدركها وامسك بذراعها ثم ارغمها على الاستدارة نحوه. نظر اليها مليا يتفحص تقاطيع وجهها المتألمة، شفتيها اللتين تلاشى لونهما، عينيها اللتين تتجنبان مقابلة عينيه، عنقها الذي ترتعش نبضاتها في عروقه. ثم خلى سبيلها بغتة فترنحت موشكة على السقوط، وقال:
«يا للشيطان! الغيرة اعمت بصيرتك!»
«ممن؟ من ليزا؟ ابدا!»
ثم نظرت اليه بقوة وصاحت:
«لما كانت ليزا قد استدعتك بهذه السرعة، أليس من الافضل ان تذهب لرؤية اليزابيت وتطمئن عليها بنفسك؟»
«هل استيقظت؟»
«ستجدها تتناول افطارها، لم نهملها لحظة منذ أدرت لنا ظهرك، انا نحب اليزابيت كما تعرف».
لم ينطق آرثر بكلمة، لكن وجهه ازداد تجهّما. واضافت تقول:
«كنت في غرفتها عند وصولك، ولا أظن انك ستساهم كثيرا في تأمين الراحة لها لو أعلمتها بانك امضيت طيلة الليلة الماضية تسابق الريح بسيارتك».
«هل يقلقك ذلك؟»
«يقلقني اذا لم يكن ما يدعو لتلك السرعة».
مشى يودّ مغادرة الغرفة ثم توقف وقال بصوت حازم:

«حسنا، أنا هنا الآن. اسمعيني قليلا، اليزابيت هي الوحيدة التي يهمني امرها. هي الوحيدة التي منحتني كل ثقتها، هي الوحيدة التي منحتني الفرصة لأبني نفسي من العدم، أدخلتني بيتها وعاملتني كولدها. لا استطيع ان أفيها بعض جميلها. . . أدين لها بالكثير، بل ليس لدينها عليّ حدود. اسمعي، سأقتل كل من يسبّب لها الأذى».

هيمن عنفه على جو الغرفة فسادها الهدوء. نظر بقسوة في وجه كارين ثم تحرك نحو الباب. وقبل ان ينصرف التفت خلفه ثانية وأضاف:

«من أجل اليزابيت تهون علي حياتي، انها لم تلدني حقا، لكنها وهبتني الحياة».

استنفدت كارين كل قوتها بعد صدامها العنيف مع آرثر، ارتدت احد فساتينها وجلست امام المرآة لتتزين، وسرعان ما ألقت جانبا أحمر الشفاه الذي كان بيدها. فهل يهمها مظهرها بعد الآن؟ ماذا يهم؟

نزلت تجر نفسها جراً لتناول الافطار وحمدت الله انها لم تجد اثرا لليزا هناك. ما ان جلست الى المائدة حتى ظهر آرثر. قال انه سيخلد الى النوم حتى موعد الغداء. وأردف بأنه لن يغادر دلرسيك مدة ثلاثة اسابيع متتالية لأنه بحاجة الى راحة طويلة.

ظلت كارين صامتة. لم تكن في حالتها الراهنة قادرة على ابداء بهجتها لمثل هذا النبأ. كان يحتل قلبها غيظ مرير يقرب في خطورته من الكراهية. لو لم تظهر ليزا على المسرح لكان من المستطاع ان تصل مع آرثر الى تفاهم ضمني وقبول بالوضع الراهن، لكن الآن وبضربة واحدة نسفت ليزا أي أمل في ذلك.

طال ذلك اليوم البائس يشوبه التخوف من انكشاف الجو المشحون بينها وبين آرثر للآخرين. الا ان مرض اليزابيت واهتمام الجميع في بعض الأمور المنزلية اثبت ان تخوفها لم يكن في محله. وعندما حان الوقت الذي ترهبه، وقت انفرادها مع آرثر في غرفتها الخاصة، رأته يستغرق في صمت كئيب، كان مبعث اطمئنان لها.

اقبل صبح اليوم التالي يحمل معه انباء الحمّى التي بدأت تجتاح القرية بأسرها. استيقظت ماجدا وليزا من نومهما وعليهما كل الاعراض التعيسة، حتى تمزي الجبارة التي استطاعت ان تدرأ عن نفسها الهجوم ذلك اليوم، لم تلبث ان سلمت بالهزيمة في اليوم الذي تلاه، وبعد يومين كان آرثر يستسلم للمرض.

كارين الوحيدة التي سلمت من الداء، لكن العناية بالمرضى وأعمال البيت التي ألقيت على عاتقها أثقلت كاهلها، وجعلتها ترحب بالتهاب الحنجرة الذي أصابها مع حلول نهاية الاسبوع، ومع ذلك لم تجد لديها الوقت الكافي للعناية بنفسها.

بينما كانت اليزابيت تتماثل للشفاء كانت ليزا طريحة الفراش تعاني من شدة وطأته، فقدت كل شهية للطعام ولم تنجح محاولات الجميع في دفعها لتناول أي شيء منه.

كانت ليزا اثناء مرضها محط عناية كارين التي كثيرا ما نظرت اليها تتأمل وجهها الممتقع المثير للشفقة، فتحس في داخلها وخزات تأنيب الضمير، ترى هل كانت مخطئة في ظنها؟

هل كانت التحية الحارة التي شاهدتها واثارت غيرتها مجرد تعبير عن شوق ليزا الشديد للقاء آرثر؟ وتذكرت امرا لم يخطر ببالها من قبل، ان ليزا كانت تعمل سابقا عارضة ازياء، فكيف لم تضع في حسبانها ان طبيعة عملها تلك أكسبتها ولا شك جرأة وبشاشة فتعودت ان تقابل الناس بحرارة مفتعلة لا تنبع عن عاطفة صادقة؟

لم تتوقف كارين عن العمل في البيت طيلة فترة الحمى التي لم يسلم منها احد سواها. مضى اسبوع وليزا بعد طريحة الفراش. نزلت كارين من عندها تحمل صينية الطعام الذي رفضت ان تتناول منه الا عصير الفاكهة، وعندما دخلت الى المطبخ نظرت تمزي الى الصينية وقالت:

«أصبحت نحيلة جدا. من الغباء ان تبقى نحيفة هكذا بعد ان تركت عملها كعارضة ازياء. فلماذا لا تتناول ما تقدمه لها من غذاء

حتى تتحسن صحتها؟»

تمتمت حانقة وهي تخرج من المطبخ تحمل اناء فيه بعض الزهور، بينما بدأت كارين في غسل الأطباق، واليزابيت الى جانبها تود مساعدتها. تنهدت كارين... لو ان اليزابيت تغادر المطبخ فتنال قسطا من الراحة، كانت تعرف انها لن تذعن لذلك. انها في اليومين اللذين تركت فيهما فراش المرض لم تكف لحظة واحدة عن العمل، على الرغم من الضعف الذي ألم بها. كانت الآثار التي خلفها المرض واضحة على جسمها. امست هزيلة الى حد مخيف، غار خداها وغاصت عيناها في محجريها تحت ظلال داكنة الزرقة، ونحلت يداها حتى بات الجلد يشف عما خلفه. بحركة تدل على نفاد الصبر سحبت كارين كرسيا والحت على اليزابيت ان تجلس قائلة:

«يمكنك تجفيف الاطباق وأنت جالسة تماما مثلما تجففينها وانت واقفة».

تأففت اليزابيت وقالت:

«بالله عليك يا كارين، يكفي ما القاه من آرثر وتمزي وماجدا، لم اعد احتمل هذه الرعاية الزائدة وهذا الاهتمام البالغ من حولي، بدأت اشعر باني اكاد اختنق!»

اعتذرت كارين وهي تعض على شفتيها، وقررت الا تنطق بحرف. خيم صمت كئيب ثم تنهدت اليزابيت ونظرت الى كارين نظرة تحمل معنى التوسل وقالت:

«كارين اني قلقة على ليزا».

ترددت كارين لتختار كلماتها بحذر ثم قالت:

«أعرف انه من الصعب الا تقلقي من اجلها. لكن حاولي الا تشغلي بالك كثيرا. انا متأكدة بأنها ستحسن سريعا، قال الطبيب ان هذه الحمى تسبب انحطاطا بالقوى لا يلبث ان يزول».

زفرت اليزابيت زفرة حرّى وقالت:

«كلا، ليس ذلك ما تعاني منه ابنتي فانا اعرفها جيدا، مرضت عدة مرات قبل الآن وفي معظمها كانت تحتاج الى فترات أطول من

هذه لتشفى، لكنها ما كانت تبدو الا باسمة ضاحكة تحب ان ترى الجميع من حولها يرقصون ويحيطونها بالرعاية. اما الآن فاني أرى الأمر مختلفا جدا، انه اكثر عمقا... ليزا ليست سعيدة».

«لماذا تظنين ذلك؟»

«لا اعرف لماذا، انه حس غريزي احس به منذ فترة، أخشى انها غير موفقة ابدا بزواجها».

«هل تحدثت مع ليزا بهذا الخصوص؟

«كلا، يبدو أنها لم تعد تبوح لي بأسرارها».

«ربما ليس لديها ما تبوح به».

«أتمنى ان يكون ذلك...»

وراحت اليزابيت تنظر من النافذة، وبغتة استدارت قائلة:

«كارين، ألم يلفت انتباهك اي تغير في ليزا بعد غيابك عنها هذه المدة الطويلة؟»

«ليس تماما، فانا لا اعرف ليزا الى المدى الذي يجعلني أكون مصيبة في حكمي. هل بحثت الأمر مع آرثر؟»

«بالطبع، قال ان ما يشغلني بالنسبة الى ليزا ما هو الا محض أوهام، وان ليزا بخير، واذا أصابها شيء، لا سمح الله، فانه سيتكفل بالعناية بها وحده».

وتابعت اليزابيت حديثها بصوت متهدج:

«لكن ألا ترين ان ذلك كله بحجة الحرص على صحتي؟ لا يجب ان أقلق! لا يجب ان أعلم! لا أحد يدرك بشاعة هذه المعاملة!»

قالت ذلك والرجفة تهزها هزا عنيفا، ثم أنّت أنة خافتة ودفنت رأسها في راحتيها.

أسرعت كارين اليها وراحت تربّت على كتفيها النحيلتين المرتجفتين وتحاول ان تجد الكلمات المناسبة لتهدئتها. لم تسمع وقع الخطوات القادمة من الخارج، ولا صوت انفتاح الباب الذي دخل منه آرثر صائحا:

«ما هذا بحق الشيطان؟»
عبر الغرفة مسرعا ودفع كارين جانبا ثم احتضن اليزابيث بين ذراعيه، وأخذ يربّت بيده على رأسها برقة متناهية وقال:
«أمي، أمي ما الخبر؟»
نظر من فوق شعرها الفضي نحو كارين وسألها عما حدث فأجابته ببرود:
«انها قلقة بخصوص ليزا».
نظر الى كارين نظرة ضمنها كل معاني الاتهام، ولم تلبث اليزابيث ان سحبت نفسها من بين ذراعيه ومسحت عينيها بيديها وقالت:
«أنا بخير، لكن بالله دعني وحدي قليلا...»
لم يستمع آرثر لطلبها بل اصطحبها الى غرفة الجلوس قائلا:
«اجلسي وخبريني بكل شيء».
ثم التفت الى كارين طالبا منها اعداد قدح من الشاي، فاستدارت تلبيّ طلبه والافكار تزدحم في رأسها. ان مخاوف اليزابيث هي مخاوفها، فهل كانت ليزا غير موفقة في زواجها؟ لم تهتم كارين مطلقا بمثل هذا الامر من قبل، ولم تكن تعرف كليفورد الى الحد الذي يمكنها ان تكوّن فكرة صادقة عن شخصيته. كانت قد التقت به مرات قليلة خلال الأشهر الأولى التي عاشتها مع آرثر، كان دائما لطيفا مع شيء من التحفظ، مضيافا دمث الأخلاق. وعلى ما تذكر فانه كان يذعن لآراء ليزا ولا يخالفها في أمر، أما بالنسبة الى الحب... فذلك شأن لا تستطيع ان تصدر فيه حكماً.
اعدت الشاي وحملت الصينية الى غرفة الجلوس، وعندما وقع نظرها على اليزابيث شعرت بالطمأنينة، كانت تجلس قرب الموقد وقد استعادت هدوءها ورباطة جأشها. لكنها رأت معالم التجهم واضحة على وجه آرثر عندما أخذ منها الصينية، ثم تمتم قائلا وهو يغادر الغرفة انه سيعود بعد لحظات. ابتسمت اليزابيث بوجه كارين ابتسامة مرتعشة وقالت:
«لا ريب انك تجدين عائلتنا متعبة».

«بالطبع لا أجدها كذلك».
كانت كارين تقدم الشاي الى اليزابيث عندما عاد آرثر ومعه حقيبته، وضعها على كرسي قريب وهو يقول:
«أخذت الى ليزا بعض العنب... فبدا عليها السرور».
ثم أخرج من الحقيبة رزمة وضعها امام اليزابيث وقال بلهجة عادية:
«ربما تبعث هذه فيك بعض البهجة».
قبلته اليزابيث وهي تفتح الرزمة وتخرج منها علبة من الشوكولا الفاخرة. قالت مبتسمة:
«آه آرثر! ايها المحبوب المسرف... انك تفرط في تدليلي، لكن أين حصة كارين؟ ألا تستحق منك معاملة خاصة على العناية الفائقة التي احاطتنا بها أثنا مرضنا؟»
«هل تعتقدين أنني يمكن أن أنساها؟»
قال ذلك وهو يخرج علبة أخرى ويتوجه بها الى كارين. لم يرخ قبضته عنها حتى اقتربت منه فألقى يده حول كتفها وعانقها. كانت معانقته حارة، كأنما يحاول ان يؤكد لاليزابيث مقدار حبه لزوجته. راحت نبضات قلب كارين تتسارع، وبيدين مرتعشتين بدأت تحل رباط العلبة يتقاسم قلبها احساسان، احدهما يبكي لعلمها ان العاطفة التي تجلت في معانقة آرثر لها ما هي الا أحد أدوار التمثيلية المتفق عليها. والثاني يبتسم لهذه الهدية غير المتوقعة.
كانت الهدية عبارة عن علبة بيضاء ثمينة تحتوي على شوكولا من النوع الذي تحبه كارين. وسمعته يقول بصوت ناعم تتخلله لهجة ساخرة:
«أرأيت كيف لازلت أذكر ما تحبين؟ ألا أستحق شيئا بالمقابل؟»
أين المفر؟ وضعت كارين ذراعيها حول عنقه وتظاهرت بفرحة الزوجة مستسلمة لذراعيه تطوقان خصرها بشدة، وعانقها ثانية بحرارة أشد من المرة الاولى. فهمست منفعلة:

«آرثر! اليزابيت تراقبنا. . .»

أخلى سبيلها وراح يمعن النظر في وجهها الممتقع، وقال بشيء من السخرية:

«عليك يا حلوتي ان تعرفي بأني دائما اتقاضى حقي كاملا مقابل هداياي!»

فقالت اليزابيت معاتبة:

«مسكينة كارين! لقد احرجتها يا آرثر. عليك ان تكون اكثر حشمة!»

رن جرس الهاتف بغتة، فهمت اليزابيت بالقيام لكن آرثر قال لكارين:

«أنت اقرب منا. . . ردي يا حبيبتي!»

اتجهت نحو الهاتف وهي تعجب كيف تنطلق منه الكلمات بهذه السهولة، وكأن الأمور طبيعية لم يطرأ ما قلبها رأسا على عقب؟ واشتعلت عيناها غيظا. يا للخسّة! انه يستغل عدم قدرتها على المقاومة امام اليزابيت، انه لكثير ما تبذله لتفي بوعدها، يا لها من صفقة!

كانت المكالمة من أحد معارف اليزابيت التي اسرعت وتناولت السماعة من يد كارين والفرحة تشع من عينيها. أما آرثر فبان الانزعاج على وجهه وهمس الى كارين عابسا:

«لا أحب ان تنخرط اليزابيت كثيرا في علاقاتها الاجتماعية، ان صحتها لا تساعد على ذلك».

أجابته كارين بنفاد صبر:

«ألا تعتقد انه من الحكمة ان تترك اليزابيت تقرر ذلك بنفسها؟ أو انك ترغب في ان تجعلها حبيسة مرضها؟»

وقبل ان تترك له مجالا للاجابة ألقت شالا على كتفيها وخرجت من البيت. طفح الكيل، فلن تسمح لآرثر ان ينال من كرامتها بعد الآن!

اتجهت نحو بوابة الحديقة غير مبالية برطوبة الهواء وبرودة الجو وهبات الضباب. وعندما بلغت البوابة انحرفت الى اليسار، وانطلقت تسير بجانب النهر لتقطع الأميال الثلاثة التي تصلها بشلالات دلرسبك.

في الصيف يحب المرء ان يقوم بمثل هذه الجولة، تحت أقواس من الاغصان المتشابكة حيث تتراقص على الدرب أشعة الشمس المتسللة من بين أوراق الشجر، وتتجاوب في الآفاق موسيقى مياه النهر. أما الآن فالنهر معكر المياه، والاشجار كئيبة ترتجف من برد الشتاء، والسماء مغطاة بستائر الضباب الرمادية.

لم تلتق كارين بأحد، بعد المنعطف الأول من الطريق بدأت تحس بقشعريرة في جسمها وانقباض في نفسها. لكنها استمرت في دربها يحثها العناد والمكابرة، الى ان سمعت دوي المياه المنحدرة الآتي من بعيد فعلمت انها باتت قريبة من وجهتها. ثم ما لبث الدرب ان بدأت تتسع وتنعطف، وما ان انعطفت معها حتى وقعت الشلالات تحت مرمى بصرها. بعد قليل وجدت نفسها في بقعة من الارض الفضاء والى جانبها مقعد من الخشب القديم، يقبع خلفه صندوق امتلأ بالقش والأعواد المهشمة.

جلست كارين على المقعد المتداعي الرطب تنظر بكآبة الى ألسنة المياه المندفعة من الأعلى، والى الزبد الأبيض المتلاطم في الأسفل. لم يكن الشلال يرتفع اكثر من خمسة عشر قدما، لكنه كان يهوي عموديا في بطن فجوة متشعبة عميقة أحدثها تآكل قلب الصخر بفعل ارتطام كتل المياه بسطحه عبر تعاقب القرون.

مضى عليها بعض الوقت وهي جالسة هناك. بدأت الرطوبة الباردة تتغلغل داخل ثيابها. لكنها لم تحرك ساكنا لمغادرة مكانها، فالوحدة التي كانت تلفها وتعزلها عن بقية العالم لاءمت مزاجها المنقبض الكئيب. . . وفاجأها صوت من خلفها يقول:

«أمازلت منزعجة ام انك تفكرين؟»

أجفلت كارين، فهدير المياه حال دون سماعها وقع خطوات آرثر وهو يقترب منها. ظلت جالسة تنظر امامها وأجابت ببرود:
«لا هذا ولا ذاك».
جلس آرثر الى جانبها وسأل:
«ما الذي جاء بك الى هنا؟»
«لماذا تبعتني؟»
«لعدة أسباب».
لم يكن جوابه كافيا، فشبكت يديها الباردتين بقوة وصممت على ألا تستسلم للبرد المتزايد، ولا تتحرك من مكانها حتى تشاء، مهما كانت معارضته لها. فليتجمد في مكانه اذا شاء.
وأردف آرثر بصوت جاف:
«رأتك اليزابيت وأنت تغادرين البيت فتظاهرت باللحاق بك لادراكك. وعندما رأيتك تتجهين الى اليسار بجانب ضفة النهر، لم اجد امامي اي خيار الا ان اتبعك خوفا عليك من الضباب».
أجابت هازئة:
«اذن خفت علي ان اضيع في الضباب. ما أرق شعورك!»
«انك تتصرفين كالاطفال. جميع اهل المنطقة هنا يخشون على صحتهم في الضباب. وعليك ان تحذي حذوهم».
«آسفة حقا، انه ليس كثيفا الى الدرجة التي يحجبك عني فلا اعود أراك!»
كانت كلماتها لاذعة، لكنه اكتفى بأن طوى ذراعيه واتكأ على ظهر المقعد وقال:
«أظن انك لازلت منفعلة بسبب تصرفي الطائش».
«تجاوزت حد الانفعال، ان السأم يتملكني الآن. لقد تعديت حدودك وأنت تعرف ذلك».
«ربما، لكن ذلك يمتعني».
«لكنه يثير اشمئزازي».
لوى فمه استهزاء وقال:

«لم أكن اعرفك بهذه الحشمة يا حلوتي. بالله عليك خففي من انفعالك!»
«لم تحرجني وحدي فحسب وانما احرجت اليزابيت كذلك».
«أرجو ان اكون أحرجتها حقا».
لم تصدق كارين أذنيها فحملقت في وجهه مذهولة وقالت:
«هل تعني ان ما فعلته اليوم أمام اليزابيت كان عن عمد؟»
«بالطبع».
«لماذا ؟ بحق السماء!»
«لأسباب أظنها واضحة».
«مادمت حققت غايتك، لا تجرؤ ان تكرر ما فعلته معي بعد اليوم!»
«ليس ذلك ضروريا».
«أرجو ذلك، والا فانك ستكرهني على أن اتجاهل دوري في هذه الصفقة».
«لم يكن اتفاقنا صفقة وانما وعدا. لا تحاولي ان تنسي ذلك».
«انك لا تمنحني الفرصة الكافية لافي بوعدي!»
هب آرثر واقفا على قدميه بحركة سريعة كأنما تعب من المشاحنة، وقال:
«أحسب اننا أرحنا بال اليزابيت بالنسبة الى أحد مخاوفها».
«تعني بالنسبة الينا؟»
هزّ رأسه ايجابا.
وقفت كارين تشد كتفيها من البرد وقالت:
«لم ألحظ ان اليزابيت تشعر بأي خوف علينا».
«حتى هذه اللحظة أعتقد ذلك، وأنا مصمم على ان تبقى كذلك».
«اذن توقف عن تصرفاتك الجائرة، حتى أتذكر دائما وعدي، اليزابيت لن تعرف الحقيقة مني اذا كان ذلك ما يقلقك».

«ليس بمقدوري ان أكف عن القلق! لعنة الله على الجميع، اسمعي يا كارين! ألا تدركين ان مخاوف اليزابيث من ناحية ليزا في محلها؟»

انفرجت شفتا كارين وتراجعت قليلا الى الوراء وقالت:

«انك لا تعني. . .؟»

«نعم، ان زواج ليزا معلق بخيط رفيع!»

«كنت أظن دائما انها سعيدة مع كليفورد».

«كنت مخطئة اذن. صحيح انه اعطاها البيت الفخم، المال، الثياب، المجوهرات والمركز، كان بامكان ليزا ان تصبح اميرة في قصر، لو ان ذلك فقط ما كانت تتمناه من زواجها».

«لكني اعتقدت ان كليفورد يحبها، أعرف انه متحفظ وانه. . .»

«وانه سمكة مثلّجة، أعرف ان مظهره يعطي مثل هذا الانطباع بالنسبة للمرأة، لكن لا تحكي عليه خطأ، كليفورد ليس من النوع الذي ينمّ مظهره على حقيقته، فهو مجنون بحب ليزا الى درجة انه يحترق غيرة لمجرد ان يرى رجلا يكثر من نظراته اليها، لكن ليزا تريد اكثر من ذلك».

بعد لحظة صمت استطرد آرثر ببطء:

«كان زواجهما محكوما عليه منذ اللحظة التي تم فيها، فهما لا يصلحان لبعضهما مطلقا، وأعجب كيف انه دام هذه المدة الطويلة».

«اذن لماذا رضيت بالزواج منه؟»

«لأن ليزا ارتكبت الخطأ ذاته الذي ترتكبه الكثير من الفتيات».

استدار بغتة وبدأ يمشي عائدا فوق الممر وهو يتابع كلامه:

«أعتقدت انه يكفيها رجل مستعد ان يسبغ عليها المال والمجوهرات، ثم اكتشفت بعد فوات الأوان ان شيئا لا يزال مفقودا. اكتشفت انها لا تحبه».

٩ ـ السهم يصيب الهدف

خيم الصمت عليهما خلال الاميال الثلاثة في طريق عودتهما الى البيت، وشعرت كارين لذلك براحة نفسية تامة. لم يبق ما يقوله احدهما للآخر، خاصة وانها بلغت مرحلة يمكن للصمت ان يمنحها فيها الأمان من ان تبتلي بجروح اخرى. لكن آرثر قطع حبل الصمت، عندما لاح لهما من بعيد شبح البيت يكتنفه الضباب:

«قد تدوم هذه الحال عدة ايام».

صدقت النبؤة، فالضباب الذي يزحف من الاراضي الجرداء الشمالية استقر كالستارة البيضاء فوق الوادي واستمر ثلاثة ايام. كان يرق احيانا فيسمح لتسلل بعض اللوحات المضيئة ثم ما يلبث ان يتكاثف ليلف دلرسبك في عزلة قاتمة.

وصل كليفورد ظهيرة يوم الجمعة، يبشرهم بان الشمس كانت ساطعة معظم الطريق الى يورك. كانت البشرى كافية لايقاظ ليزا من خمولها، خاصة وان كليفورد جلب لها مجموعة من كراسات الدعاية للاماكن الجميلة التي يجدر بالمرء ان يقضي فيها ايام العطل، واقترح عليها ان تبدأ بالتخطيط للعطلة الصيفية. استعادت ليزا بعض حيويتها القديمة وتربعت فوق سجادة بالقرب من النار، والمشاهد المغرية لامكنة اللهو البعيدة تنتشر من حولها. موضوع العطل والرحلات التي جاء بها كليفورد، اثار معظم اهل البيت الذين كانوا قد سئموا الضباب الذي خيم على محيطهم، فأخذ كل منهم يحدد المكان الذي سيمضي فيه عطلته السنوية، الا آرثر، فانه ظل بمعزل عن المشاركة في الحديث، فسألته ليزا:

«الا تنوي ان تأخذ عطلة في هذه السنة؟»

«انا اقضي عطلتي الآن».

نظرت اليه اليزابيث قائلة:
«انا لا اعتبر البقاء هنا عطلة يا عزيزي، ثم ماذا عن كارين؟»
«كارين تعلم باني لا اعارض ابدا ان تذهب اينما تشاء بدوني . . . اذا ارادت».

لم تكن كارين الوحيدة التي ظهرت على وجهها علائم الدهشة لجواب آرثر، وقبل ان تعقب بكلمة سبقتها اليزابيث وليزا بالكلام معا، ثم توقفتا ونظرت كل منهما الى الاخرى، ابتسمت اليزابيث لابنتها وقالت:

«تكلمي يا حبيبتي، اني متأكدة بانك كنت ستقولين بالضبط ما كنت انوي قوله» ابتسمت ليزا ابتسامة خبيثة وقالت:

«لا اظن ذلك يا ماما. كنت ستستغربين فكرة ذهاب كارين لقضاء عطلة بدون آرثر، لكني اخالفك في ذلك، اعتقد انه من الضروري ان ياخذ الازواج والزوجات عطلا منفصلة. يكفي انهم معا باقي ايام السنة».

والتفتت الى زوجها مبتسمة واردفت:
«اعرف ان كليف سيعتبر فكرتي هذه في منتهى القباحة، فهو ذو عقلية جامدة. الا يوافقني احد على فكرتي؟»
اجاب آرثر:
«هذا يعتمد على الشخص الذي يصاحبك في العطلة».
ضحك الجميع لجواب آرثر، باستثناء كليفورد الذي القى بكراسة الرحلات من يده وقال:
«ما ترمون اليه خيانة زوجية صريحة».
انفجرت ليزا قائلة، بدون ان تنظر الى وجه زوجها الذي بدا عليه الانزعاج:

«بحق السماء يا كليفورد! انك لن تتغير ابدا! وبعد، فانا لم اقل كلمة حول مصاحبة اي انسان آخر في العطلة، لكنها خاطرة طرحتها. ثم لماذا لا تتحدثون عن تلك الرحلات التي يقوم بها

الرجال بدون نسائهم، ويدعونها رحلات عمل؟»
استدارت برأسها لتواجه آرثر وقالت:
«اما انت يا آرثر فاعتقد انك غيرت وجهة نظرك بالنسبة الى فكرتي».
«غيرت وجهة نظري؟ من اية ناحية؟ لا اظن اني علقت على فكرتك تعليقا شائنا».
قهقهت ليزا ضاحكة وقالت:
«لكنك ظننت اني عنيت من تلك الفكرة مصاحبة شخص آخر اثناء العطلة».
«مجرد تلميح لا يحتاج الى كل هذا الجدل».
التفتت ليزا الى كارين بنظرة فضولية وقالت:
«انك فتاة محظوظة يا كارلو! يبدو ان اخي التحق بالمجتمع المتسامح، فالعطل بدون قيود الآن! انتهزي الفرصة قبل ان يرجع عن رأيه!»
نهض آرثر بخفة عن كرسيه ورمق ليزا بنظرة تأنيب وقال:
«انا عدلت عن رأيي».

ثم اتجه الى التلفزيون واخذ يستمع الى الاخبار. توقف الحديث عند ذلك الحد، وشعرت كارين ان الانظار تتجه نحوها، التقت عينيها بعيني آرثر، كانتا تنظران اليها بحدة وكأنهما تستفزانها، ولكنها لم تجرؤ على قبول التحدي.

احست بالملل الشديد وتمنت لو انها تستطيع النجاة من تيارات العداوة الجياشة المستترة التي بدأت تنبعث من ليزا. . . النجاة من تخوفها ان تعرف اليزابيث الحقيقة، النجاة من العذاب الذي تعانيه بسبب تلك الليالي التي كانت ملزمة ان تقضيها مع آرثر، ذلك الزوج شرعا والغريب فعلا، والذي كان يقبع صامتا في السرير الى جوارها. كانت تعيش كل دقيقة من دقائق تلك الساعة المعتمة في رعب قاتل، حتى متى تستطيع التحكم بارادتها؟ والى متى يستطيع

آرثر ذلك . . .

انبلج فجر الاسبوع الجديد جالبا معه الفرج من الضباب، ومن كآبته. لم يكد كليفورد ينطلق بسيارته الى مقر عمله في المدينة حتى بدأ الحجاب الابيض ينقشع تدريجيا، ومشاهد الاحراج تظهر من جديد، وعند الظهر كانت الشمس تشرق ساطعة في كبد السماء والسحب تتلاشى، الا من بضع بقع منشورة هنا وهناك. . . انقلب الجو فجأة كأنما حل الربيع.

ازاء هذا الطقس الجميل، المغري اتفق الجميع على القيام بجولة في الريف، يجلون عن انفسهم الخمول الذي سببته هيمنة الضباب طيلة الايام الثقيلة الماضية. انطلقوا في الصباح الباكر ضمن سيارتين، الاولى يقودها آرثر ومعه كارين واليزابيت وليزا، والثانية تقودها تمزي ومعها ماجدا.

كانت مشاهد الريف التي يمرون بها غاية في الروعة والجمال. الخضرة الغضة بدأت تكسو المنخفضات والمرتفعات وتطلق اوائل براعمها للحياة. النرجس ينتشر في كل مكان، وازهار الربيع ترقط خدود البراري بألوانها الرائعة.

توقفوا بالقرب من احدى القرى المسترخية بدلال على كتف هضبة وتفرقوا كل على هواه مسحورين بمناظر الطبيعة الاخاذة.

استحوذ جمال الطبيعة على كارين، وجعلها تنفرد وحيدة تمتع عينيها بما حولها. فجأة رنت ضحكة ليزا كالجرس تتردد مع النسمات. التفتت كارين نحو مصدر الضحكة، فرأت ليزا مع آرثر يتمشيان غير بعيد. تقدمت كارين منهما خطوة ثم وقفت جامدة. اذ انطلقت من ليزا صرخة فزع حادة، ورأتها تترنح وهي توشك على السقوط بعد ان تعثرت بمشيتها، لكن آرثر الذي كان قريبا منها اسرع فأمسك بها. ارتفعت ضحكة ليزا ثانية وهي تتشبث به. . . يحيطها بذراعه ورأسها يلامس كتفه.

صرفت كارين نظرها عنهما، واستدارت عمدا في الاتجاه المضاد.

كان جسمها يرتعش على الرغم من ان الشمس تسطع دافئة من السماء الصافية الزرقاء. تلاشت البهجة التي كانت تغمرها قبل قليل، واخذت تنظر امامها كالعمياء تحاول ان تقنع نفسها بان ما قام به آرثر حيال ليزا، ما هو الا مجرد ردة فعل طبيعية يمكن ان تصدر عن اي شخص يواجه موقفا مشابها. لكن ما الذي يهمها من كل هذه الامور، حتى ولو كانت شكوكها مبنية على اساس من الواقع؟ ألم ينته زواجها من آرثر؟

اغمضت كارين عينيها والالم يعصر فؤادها، ثم توجهت عائدة الى السيارة. اقبل الجميع بعد قليل، وانطلقوا من جديد فوق الطريق الضيقة المتعرجة التي تصل بين القرى المنتشرة في تلك البقاع.

اخيرا توقفوا امام احد المطاعم ونزلوا لتناول الغداء. احست كارين برغبة جامحة لالقاء نظرة متفحصة على ليزا، رأت في ملامحها تغيرا واضحا، ولمحت في عينيها الزرقاوين علامات قلق عميق. بغتة التقت نظراتهما، فرفعت ليزا حاجبيها بتحد ظاهر، ثم اشاحت بوجهها جانبا، هل كانت تلك الاشاحة بسبب الشعور بالاثم وتبكيت الضمير؟ احست كارين بيد اليزابيت تلمس ذراعها وسمعتها تقول:

«هل انت بخير يا حبيبتي؟»

«احس بصداع خفيف، لكني بخير».

توقف الجميع عن الحديث، وتركز اهتمامهم بكارين. . . احست بالدم يتصاعد الى خديها. نظرت الى الطبق امامها، والتقطت ملعقتها متظاهرة بالاكل، على انها كانت فاقدة الشهية تماما.

مالت ماجدا نحوها وعرضت عليها قرصين من الاسبيرين، فتقبلتهما شاكرة.

سألتها اليزابيت التي كان الاهتمام ما زال باديا على وجهها:

«اتفضلين العودة الى البيت يا حبيبتي؟»

هزت كارين رأسها بالنفي، وقالت:

«كلا! ان ذلك يقطع عليكم بهجة هذا اليوم الجميل، صدقيني انا بخير».

اصطنعت ابتسامة، ثم رفعت رأسها ووجهت نظرها مباشرة الى عيني آرثر الذي كان بدوره ينظر الى عينيها نظرات نفاذة، كأنما يحاول ان يخترق بها جدار مظهرها الخارجي ويصل الى اعماق اعماقها. واخيرا سأل:

«هل انت حقا بخير يا كارو؟»

اومأت برأسها من غير كلام فتظاهر بالاقتناع وطلب القهوة. فارقها ارتباكها وهي تتناول قهوتها، وشعرت بشيء من الراحة، لكنها كانت تدرك ايضا انها بحاجة الى كثير من المران في المستقبل، والى دراية افضل بكيفية اخفاء مشاعرها.

غادروا المطعم واستمروا في تنقلهم من مكان الى اخر حتى قاربت الرابعة. توقفوا في بلدة سياحية، ودخلوا احد المقاهي لينعموا ببعض الراحة وتناول الشاي. بعد استراحة قصيرة ابدت النساء رغبتهن بالتجول في سوق البلدة لشراء بعض الحاجيات... باستثناء كارين التي لم تذهب معهن، بل ظلت واقفة الى جانب الطريق مع آرثر ينتظران عودتهن. فجأة مدّ يده كالطلقة، وشدها اليه بقوة في اللحظة التي مرت بجوارها سيارة ضخمة كانت مقبلة من الاتجاه المقابل بسرعة هائلة. ارتعش جسمها بشدة، ليس من الخطر الذي احدق بها منذ هنيهة، وكاد يودي بحياتها تحت عجلات السيارة الضخمة، وانما من تطويق آرثر لها بذراعيه القويتين، ازدردت ريقها بصعوبة بينما أرخى آرثر يديه عنها وهو يقول:

«انتبهي لنفسك بحق السماء! الشارع ضيق لا يسمح بأحلام اليقظة».

استعادت رشدها قليلا... وردّت عليه بكبرياء:

«لم أكن احلم».

«حسنا، مهما كنت تفعلين فقد اشرفت على الهلاك».

[illegible] كارين دمعتين كادتا تسيلان من عينيها، وقالت بانفعال:

«لم أكن اتوقع مرور السيارة بتلك السرعة».

«حسنا، دعينا من ذلك».

«ارجو ألا تكلمني بعد الآن وكأني ساذجة قاصرة العقل».

«بحق السماء لم أقل انك كذلك».

«ولا تصرخ في وجهي!»

قالت ذلك وحاولت الابتعاد عنه بسرعة، فامسك بها وقال:

«انا لا اصرخ في وجهك... ارجو ان تخفضي صوتك. اذا كنت تريدين الشجار، أرجئي ذلك حتى نعود الى البيت».

«اوه، كم أنت عنيد!»

«ويمكن ان اصفك بالصفة ذاتها. ماذا دهاك اليوم بحق الشيطان؟»

«هل انت بحاجة للسؤال؟»

في تلك اللحظة ظهرت اليزابيث من بعيد، فاردفت كارين:

«تلك اليزابيث، انظر!»

«اسمعي، أكون شاكرا جدا لو انك حاولت احتمال وجودي بشيء من اللباقة والكياسة حتى نصل الى هارسبك... من اجلها هي ان لم يكن من اجلي».

اجابت بصوت ابرد من الجليد:

«لا تشغل بالك فأنا لم انس دوري، لكني لسوء الحظ لا أجيد التمثيل كما تجيده انت».

سمعته يشهق فأدركت ان سهمها اصاب الهدف.

لم يجبها بشيء، بل تأبط ذراعها فلم تعارض، لكنها هذه المرة لم تشعر بالحرارة تسري في اوصالها، انما ببرودة الحقد والكراهية.

كانت اليزابيث تقف امام واجهة احد المحلات التجارية الكبيرة،

أدارت وجهها فرأتها وابتسمت. اقتربا منها واذا بها تشير الى واجهة المحل وتقول:

«انظري، أليست تلك الحقيبة الهندية جميلة؟ هل تعجبك؟ أو ندخل الى الداخل ونرى كل ما فيه؟»

ترددت كارين، بينما لوى آرثر فمه بشبه ابتسامة، تدل على تبرم الرجال من عملية اختيار النساء لمشترياتهن وقال:

«حسنا، ادخلا انتما، سأنتظركما هنا».

لكن اليزابيت لم توافق على ذلك وقالت:

«كلا، أريدك ان تساهم باختيار شيء».

دخلت كارين المحل التجاري في اثر اليزابيت، من دون ان تنذرها حاستها السادسة بشيء. كان همها الوحيد ان تبذل قصارى جهدها لمنع اليزابيت من اختيار هدية لها باهظة الثمن، ذلك ان المحل التجاري كان ضخما، يحوي الكثير من القطع الثمينة النادرة. التقطت كارين انفاسها عندما سمعت من البائعة سعر الحقيبة، وحمدت الله على ان الحقيبة أو شبيهاتها لم تحظ باستحسان احد. أخذت تختلس النظر الى القطع المعروضة علها تجد قطعة متوسطة الثمن لا تثقل كاهلها بالمنة، وتحظى في الوقت ذاته برضى اليزابيت الفائقة الكرم. وفجأة ادركت بحسها الخفي المأساة التي تجري امامها. ان اليزابيت كانت تريد ان تشتري هدايا تذكارية بمناسبة الذكرى الثالثة لزواجها من آرثر، ويا لها من ذكرى!

انتقت هدية ثمينة اشترتها لآرثر. ثم اشترت محفظتين لكل من ماجدا وتمزي، وعلبة فضية مزركشة لليزا. ثم التفتت الى كارين مبتسمة وقالت:

«والآن اختاري يا حبيبتي شيئا يعجبك انت، اذ من الممكن ان اختار لك هدية لا تناسب ذوقك».

تدخلت البائعة هذه المرة، وقالت موجهة حديثها الى اليزابيت:

«في الطابق العلوي مجموعة جميلة من الهدايا، وانا متأكدة يا

سيدتي انكم ستجدون هناك ما يرضي السيدة».

لم تنتظر اليزابيت رأي احد بل بدأت تصعد الدرجات الى الاعلى، قائلة:

«اتبعوني، اني اشعر بالبهجة هذا اليوم».

قال آرثر وهو يتبعها:

«انك دائما تشعرين بالبهجة وانت تصرفين نقودك على عائلتك، لكن ارجو الا تبذريها اكثر من اللازم».

اجابت اليزابيت ببساطة:

«لن آخذ شيئا معي، انت تعرف ذلك».

صمت آرثر ولم يجب بحرف، بينما اخذت اليزابيت تنقل نظرها من رف الى رف حتى وقع على طائر ازرق من الكرستال، نظر الجميع الى الطائر، كان متقن الصنع جميلا، فارشا جناحيه كأنما يهم بالطيران عن غصنه الكرستالي، وعندها التفتت اليزابيت الى كارين بنظرة حانية:

«لم يعد امامنا اي سؤال، رائع جدا واريد ان اهديك اياه دون اي اعتراض يا عزيزتي».

لم تنتظر اليزابيت منها جوابا، بل طلبت من البائعة ان تضعه في علبته. تحرك آرثر باتجاه الدرج، ثم توقف عندما رأى ليزا وماجدا تصعدان الى الاعلى. اقبلت ليزا بانشراح تقول:

«ما اجمل هذه المعروضات. هل اشتريت شيئا ماما؟ شيئا من اجلي؟»

رد عليها آرثر قائلا:

«انها الحسودة اللعوب، انتظري قليلا وسترين».

نظرت ليزا اليه بدلال، ثم بدأت تتجول بين الرفوف متفحصة القطع الجميلة. اما كارين فانها امسكت جرسا زجاجيا لفت انتباهها بروعة صنعه. كان بجوار جرس اكبر حجما، لكن كارين تذكرت بانها لا تحمل من النقود ما يمكنها من شراء الجرس الكبير، فآثرت

شراء الصغير هدية منها لاليزابيت، وردا على هديتها. حملت الجرس الصغير الى البائعة التي كانت ما تزال تبحث عن علبة كبيرة تستوعب الطائر الازرق. فجأة سمعت صوت ليزا وهي تشير الى غرفة جانبية تسأل عن محتوياتها، كانت غرفة اللوحات. . . اتجهت كارين نحو الغرفة التي اشارت اليها ليزا وتبعها الجميع، واذ بها تجمد في مكانها وقد سمرها الرعب. غامت كل اللوحات التي كانت معلقة على الجدران امام عينيها الا لوحة وحيدة في اطار ابيض.

بدا لها ان اللوحة تكبر تدريجيا، حتى غطت الجدار بأكمله وكأنها تشير اليها باصبع الاتهام. وقفت مكانها مشدودة ترتعش من الفزع، لا تقوى على الحركة، لم يعد امامها متسع من الوقت للفرار، ولم تجروء ان تلتفت الى الوراء حيث كان يقف آرثر. سمعت صوت اليزابيت وكأنه ينبعث من مكان سحيق:

«في اللوحة خروج عن العفة، لكنها رائعة. الا يحق للفنان ان يصور المرأة وهي عارية؟»

صاح آرثر بصوت خشن منفعل:

«كلا انها تجارية رخيصة. . . انا. . .»

لكنه توقف فجأة اذ انبعث من جانبه صرخة متحشرجة، فالتفت ليرى ليزا تتكوم على نفسها، وفي اللحظة التالية كانت تهوى على الارض غائبة عن الوعي.

١٠ - لاتدعي الطائر يحلّق

هرعت البائعة راكضة. شهقت اليزابيت وسقطت على ركبتيها، واطلقت ماجدا وتمزي صرختي فزع، بينما صاح آرثر:

«ارجعوا الى الخلف! اعطوني كرسيا».

اسرعت البائعة الخائفة تحضر الكرسي، بينما جثا آرثر على ركبتيه بجانب ليزا وفتح ياقة معطفها، ثم حضنها بين ذراعيه وحملها واجلسها على الكرسي. اخذ يقوم ببعض الاسعافات لاعادتها الى وعيها، اخيرا تنفس الصعداء عندما تحركت بين يديه واطلقت انة ألم طويلة.

همس قائلا:

«هل انت بخير؟ لا تخافي يا حبيبتي».

اقتربت ماجدا تحمل زجاجة بيدها وتقول:

«اليك بعض الاملاح المنعشة».

تناول آرثر الزجاجة، فتحها وقربها من انف ليزا. . . اطلقت انة ثانية وابعدت الزجاجة عنها وهمست بصوت ضعيف:

«ماذا حدث؟ هل اغمي علي؟»

قال آرثر وهو يقرب منها كأس ماء «اظن ذلك، اشربي بعض الماء».

بعد لحظات اخذت ليزا نفسا طويلا وهي ترتعش بقوة وقالت متلعثمة:

«خذني الى البيت يا آرثر. . . اشعر باني مريضة. . . انا خائفة».

«لا تخافي، سنأخذك الى البيت حالما تستطيعين الوقوف على قدميك. لولا ضيق السلم لحملتك بين يدي الى الاسفل».

بعد قليل تحاملت على نفسها واخذت تجر قدميها جرا، مستندة

على كتف آرثر الذي نزل بها الى الطابق الارضي بتأن ولطف. جمعت كارين الحقيبة والرزمة اللتين سقطتا من ليزا، وتبعت الجميع وهي تهتز وتوشك ان تنهار، تمنت، لو انها تستطيع الهرب من المتجر تحمل معها كآبتها وتشاؤمها.

ابدت صاحبة المحل التجاري اهتماما شديدا بما حدث، وعرضت عليهم استدعاء الطبيب، غير ان آرثر اعتذر قائلا ان من الافضل نقلها الى البيت بسرعة.

كانت ليزا بحاجة شديدة الى الراحة، فاستلقت على المقعد الخلفي من السيارة. وانطلق آرثر ترافقه اليزابيت، على ان تتبعهم كارين برفقة ماجدا وتمزي.

وصلت كارين البيت بعد ساعة من وصول آرثر وهي لاتزال تشعر بالخوف والكآبة. الخوف من لقائها به. دخلت القاعة بخطى متباطئة متوجهة الى غرفة الجلوس. كان آرثر يجلس بجوار الموقد، لا يبدو على ملامحه شيء مما كان يعتمل في صدره، وعندما رآها قال بصوت لا يبعث على الراحة:

«بدأنا نقلق عليك».

اشاحت كارين بنظرها عنه وسألت:

«كيف حال ليزا؟».

اجابتها اليزابيت التي كانت غارقة في مقعدها المريح بجوار النار:

«اظنها نائمة الآن. اتجهت الى سريرها حال وصولنا ولم ترض ان تتناول طعاما او شرابا. كذلك لم توافق على استدعاء الطبيب. اقلقني جدا ما اصابها اليوم».

هزت كارين رأسها وتابعت اليزابيت حديثها:

«ما اصاب ليزا مثير للقلق حقا. انطفأت فجأة كانطفاء النور، وعندما استفاقت من اغمائها بدت مخيفة... وجه ابيض كوجوه الموتى. ليتها تسمح باجراء فحص شامل لها».

تنهد آرثر وقال:

«اصبحت ليزا كبيرة الآن، دعيها تفعل ما يناسبها، اعرف ان من الصعب عليك الا تتدخلي بشؤون اولادك بالرغم من انهم غدوا كبارا، لكن عليك ان تحاولي».

ثم التفت الى كارين وشملها بنظرة ساخرة وفاجأها بقوله: -

«الا تودين ان يكون لك طفل صغير يا حبيبتي؟».

احست كارين بانقباض شديد. ودت لو تضربه، وودت لو تستطيع ان تعيد اليه بعض تلك الكلمات اللاذعة المؤلمة التي يوجهها اليها دائما. جمعت قبضة يدها وارتجف صوتها عندما اجابته قائلة:

«في الوقت الحاضر لا. واظن انك تشاركني مثل هذا الشعور».

تدخلت اليزابيت بالحديث وقالت:

«آرثر! هل انت مشتاق لان تجعلني جدة؟».

«الا تروق لك الفكرة؟».

«بالطبع! اني احب كثيرا ان احضن حفيدي الاول بين ذراعي قبل...».

لم تكمل اليزابيت قولها بل غيرت الموضوع وسألت:

«آرثر، هل ادخلت جميع الاغراض التي جلبناها معنا؟».

«كلا، لا تزال في السيارة، سأذهب لاحضارها».

خرج من الغرفة وخيم الصمت. شعرت كارين ان الجو مناسب لان تقدم الهدية الى اليزابيت، اخرجت الجرس الزجاجي من حقيبتها وقدمته اليها.

تجلت السعادة على وجه اليزابيت التي وقفت لتقبل كارين... وصاحت:

«آه يا عزيزتي! ما هذه المفاجأة السارة! كم انا محظوظة بهذه العائلة المحبة».

كانت كارين تعرف انه من الصعب الا يحب الانسان اليزابيت، احست بدموع المودة تتسرب من عينيها عندما امسكت بدورها هدية اليزابيت، الطائر الزجاجي الازرق، وقالت:

«انه طائر اسطوري!».

اجفلت فجأة عندما شعرت بحركة خلفها. لم تسمع خطوات آرثر الخفيفة على السجادة، بل احست بأنفاسه على شعرها. وقف ينظر الى الطائر الازرق الذي كانت تمسكه بكلتا يديها، وسمعته يقول:

«احذري ان يطير منك».

نظرت اليه اليزابيت موبخة:

«الا تستحي ايها الساحر الماكر!»

ثم التفتت الى كارين قائلة:

«تجاهليه عندما يضايقك يا كارين».

لم تقل كارين شيئا، بل تقدمت الى الكوة الصغيرة بجانب الموقد حيث تضع اليزابيت قطعها الثمينة ووضعت الطائر الازرق فيها. وعندما استدارت شاهدت آرثر يقف بجوار اليزابيت وعلائم التجهم بادية على وجهه، وهو يقول:

«من الافضل ان تنامي مبكرة هذه الليلة، لتكوني مستعدة لاجراء الفحوصات اللازمة كما تعلمين».

كست الكآبة وجه اليزابيت، تنهدت ثم قالت:

«اخصائي جديد؟ هل هذا ضروري؟»

«نعم».

كانت لهجة آرثر حازمة. تردد قليلا ونظر الى ساعته، بغتة قال:

«يجب ان اغادر البيت الآن».

«لكن لماذا... ؟»

هز رأسه، وانحنى يقبل اليزابيت المستغربة من مغادرته المفاجئة وقال:

«ارجو معذرتك يا ماما، انا في حالة تدعوني الى الخروج قليلا».

وقبل ان يغادر الغرفة التفت الى كارين واردف:

«لا تنتظريني، من الممكن ان اتأخر».

لم تستطع كارين مغادرة الغرفة مباشرة بعد خروج آرثر، كانت تشعر بالحرج من نظرات اليزابيت الاستفسارية حول السبب الذي دفع آرثر للخروج من البيت في تلك الساعة. اذا كان مزاجه لا يسمح له بالبقاء، فهل كان باستطاعتها منعه من الخروج؟ انها آخر من يفكر آرثر بالاذعان له، ثم لماذا تحاول منعه من الخروج؟ ان خروجه يسبب لها كثيرا من الراحة، خاصة اليوم وقد عانت ما فيه الكفاية.

اعدت ماجدا عشاء خفيفا، لم تأكل منه اليزابيت الا القليل. اما كارين فلم تكن لها شهية للطعام. حوالي التاسعة اوت اليزابيت الى سريرها بعد ان اوصتها بابنتها ليزا التي ما تزال نائمة، فتطوعت كارين للسهر على راحتها.

بعد ان تأكدت كارين من نوم اليزابيت، دخلت المطبخ لتعد طعاما تحمله الى ليزا، فسألتها ماجدا:

«هل ستنتظرين عودة آرثر؟»

«بعد اطعام ليزا سادخل الحمام واغسل شعري، من المحتمل ان يعود بعد ان انتهي من ذلك، اذا كنت تريدين ان تأوي الى سريرك فلا تتأخري، كان اليوم متعبا كما تعلمين».

عملت ماجدا بنصيحة كارين وذهبت لتنام. اما هي فانها حملت صينية الطعام واتجهت الى غرفة ليزا وطرقت على الباب. لم تسمع جوابا، بل سمعت انينا ينبعث من الداخل، ففتحت الباب بسرعة مستفهمة:

«ليزا... ؟»

«من هناك؟»

«انا كارين اتيتك بعشاء خفيف، يجب ان تأكلي شيئا».

«ابعديه عني، لا اريد ان أكل شيئا».

نظرت كارين الى الجسم المكوم في الفراش. احست برغبة شديدة ان تتركها وشأنها من غير مبالاة، لكنها قاومت تلك الرغبة ولمست

راس ليزا الاشقر المستلقي على الوسادة الليلكية. . . وسالت:

«ليزا، ماذا بك؟»

تفرست ليزا بوجه كارين مشعلة وقالت:

«ماذا بي؟ لم اعد احتمل! اتمنى لو اموت واستريح!»

«هل بمقدور احد ان يقدم لك يد المساعدة؟»

مدت ليزا يدها الى كأس الحليب، جرعت منه جرعة ثم صاحت:

«بالله عليك. . . اتركيني وشأني!»

لم تيأس كارين، كانت ترغب في سبر غور هذه الازمة الجديدة، والتخفيف من حدتها، من اجل اليزابيت على الاقل، ان لم يكن من اجل اي شيء آخر، قالت:

«لكني لا استطيع ان اتركك على هذه الحال، اخبريني ما بك؟»

تنهدت ليزا واطلقت انة طويلة، ثم غاصت في فراشها وقالت:

«ليس لي خلاص مما انا فيه، ستعرفين ما بي مهما بالغت في اخفاء ذلك الآن. . . انا حامل».

انفجرت شفتا كارين دهشة. تصورت عدة احتمالات لحالة الشقاء التي تعاني منها ليزا، لكن هذا لم يخطر على بالها ابدا. تلعثمت كارين قليلا عندما سالت:

«لكن الست سعيدة؟»

اجابت ليزا مهتاجة:

«سعيدة! قولي محطمة! آخر ما اتمناه في حياتي هو الطفل».

«لكن امك وكليف! كم سيسعدهما هذا النبأ، اوه يا ليزا، الا تتصورين ماذا يعني هذا بالنسبة الى امك؟ الم تخبريها؟»

«كلا، لم اكن متأكدة، بل لم اكن اريد ان اصدق نفسي، لكني متأكدة الآن. كارين انا خائفة، من الالم، من تأثير الحمل على شكلي، من ان يتمخض الحمل عن انثى، ومعنى ذلك ان احمل مرة اخرى، لان كليف يريد ذكرا. ان له اخا غنيا لم يتزوج، ولا يريد ان

يتزوج، وكليف يريد وريثا ذكرا له ولأخيه. يا آلهي ليتني لم اتزوج! لم اتزوج كليف!»

نسيت كارين مشاكلها واخذت ليزا بين ذراعيها، وتمتمت تهدئ من روعها:

«لا بأس يا عزيزتي، انت خائفة لانها المرة الاولى، ولأنك كنت مريضة بتلك الحمى. . . لكن لا تفزعي، الامر لا يستدعي كل هذا الخوف».

اجهشت ليزا باكية وقالت:

«لكنك تجهلين مشاكل الحمل. . . لم تمري بهذه التجربة بعد».

«لا تزعجي نفسك بهذا الامر الآن، فكري فقط بنفسك وبالسعادة التي سيجلبها هذا النبأ الى امك التي طالما تمنت ان ترى لك طفلا. انها تحبك اكثر من اي انسان آخر في الوجود، ومن يدري، فقد يطيل هذا من عمرها!»

كفكفت ليزا دموعها المنسابة على خديها وقالت:

«حدثت نفسي بذلك، آه، كم انا انانية يا كارين! لكن ما العمل؟ انا لا استطيع تحمل هذه المعاناة».

ادهش كارين اعتراف ليزا بأنانيتها، لكنها قالت بهدوء:

«الانانيون الحقيقيون لا يعترفون بانانيتهم».

قالت ليزا بانفعال:

«ثقي بأني ساحاول تحمل ما انا فيه، لكني اشك في قدرتي على الاحتمال. . . الجميع كانوا ينظرون الي نظرة خاصة، احبني والدي حبا شديدا، وكنت في عيني امي معصومة عن الخطأ. قدم لي آرثر وكليف الحماية والرعاية. ومع ذلك فانا لا استطيع ان اظل ليزا التي يعرفونها. تفهمينني يا كارين؟ انا لا استطيع ان اعيش التقاليد التي اعتادوا عليها. مثلا انا احب امي، لكني لا استطيع ان اكون مثلها، لا استطيع ان اسلك الطريق ذاتها التي سلكتها وتسلكها، ان احافظ على التقاليد ذاتها التي تتمسك بها، الاخلاص لرجل واحد حتى

ساعة الموت. الطلاق ممسوخ من قاموس العائلة، اما بالنسبة لعائلة كليف فالمسألة ادهى وامر، ان مجرد التفكير بالطلاق غير مسموح به على الاطلاق».

احست كارين بقشعريرة باردة تسري في اوصالها للكلمات الثائرة التي كانت تنطلق من فم ليزا، سألت هامسة:

«هل يعني هذا انك ترغبين الانفصال عن كليف؟»

«كيف استطيع ذلك الآن؟ بعد ان حملت».

«لكني متأكدة من ان كليف يحبك».

«يحبني؟ قولي يتملكني، يحاول ان يجعلني مالا يمكن ان اكون . . . زوجة مثالية. المشكلة اني لا املك الشجاعة الكافية لأتركه واحصل على حريتي، لأعيش الحياة التي اريدها انا، لا التي تريدني عائلتي ان اعيشها. لا استطيع ان احطم الاوهام التي بنوها من حولي، يا الهي، حاولت ان اكون كما اراد لي ابي وامي وآرثر وكليف ان اكون، ولكن. . .»

اغرقت رأسها في الوسادة شاحبة الوجه منهكة. مرت لحظات طويلة وكارين صامتة، ثم تنهدت قائلة:

«آسفة يا ليزا، لا ادري ما اقول».

«لا يوجد ما يقال، وقعت في الشرك وانتهى».

كان لكلمات ليزا صدى حزين في قلب كارين، هي نفسها وقعت في شرك الظروف. احست بان المسافة التي كانت تبعدها عن ليزا بدأت تتقلص، قالت بهدوء:

«لا تعتقدي ان الامر خطير الى هذا الحد. ستعتادين على فكرة الطفل. . . عديني انك ستخبرين امك عاجلا».

نظرت ليزا الى كارين بعينين دامعتين وهمست:

«اشعر بالراحة الآن لاني اخبرتك».

مدت يدها وتناولت شطيرة، واخذت تأكلها بشهية، ثم قالت:

«كارين، لا تخبري احدا بما حدثتك».

«بالتأكيد لن افعل».

«ولا حتى آرثر، خاصة آرثر، عديني».

«اعدك».

هدأت ليزا اخيرا ومالت جفونها للنوم. اخذت كارين تهبط درجات السلم بخطوات ثقيلة متجهة نحو المطبخ. كانت الساعة تدق الحادية عشرة معكرة صفو السكون في البيت المعتم، عندما انهت عملها في المطبخ، وراحت تصعد من جديد باتجاه غرفتها.

دخلت غرفة الحمام حيث خلعت ثيابها وجلست على طرف الحوض. كان البيت الكبير ساكنا لا صوت فيه ولا حركة. فجأة سمعت صوتا جعلها ترتعش ثم تجمد في مكانها. تردد الصوت مرة ثانية، لم يكن صوت عجلات السيارة وهي تقف امام البيت، لكن صوت صرخة يائسة اطلقها حيوان صغير ضعيف من الغابة البعيدة، ضحية لا حول لها ولا قوة وقعت فريسة بين انياب وحش كاسر. . . كم من الضحايا البريئة في هذا العالم! بغتة ادارت الحنفية كي يطغى صوت الماء على تلك الصرخات المفزعة اليائسة.

راحت تحدث نفسها وهي تستمتع بالماء الساخن المنهمر على جسمها: اذن ليزا ستلد طفلا. كم ستبتهج اليزابيث عند سماعها النبأ، لكن من سيزف لها البشرى؟ لا يمكنها ان تفعل هي ذلك، فقد قطعت على نفسها عهدا الا تخبر احدا. وسألت نفسها، ترى لماذا الحت ليزا عليها الا يعلم آرثر شيئا؟. . . بغتة قفزت من مكانها وارتدت عباءة الحمام وهي تحس بالرعشة تهز اوصالها من جديد. انتابها خوف مبهم لن يزول الا بعد مجيء آرثر او بالاحرى حتى تفسح ساعات الليل الطويلة المجال للفجر الجديد. خرجت من الحمام الى غرفتها، وعلى سريرها رأت ما جعلها تجمد في مكانها، رأت لوحة مستطيلة كبيرة، لم تكن موجودة هناك من قبل. حدقت في اللوحة يساورها خاطر رهيب. . . من جاء بهذه اللوحة الى هنا؟ فجأة رفعت يدها الى عنقها بجفلة عندما سمعت صوت آرثر:

«وهذه لك. لماذا لا تنظرين اليها جيدا؟»

استدارت تريد الهرب، الا انه كان اسبق منها فسد الباب بجسمه الطويل ثم دفعها الى الداخل، وامسك باللوحة ووضعها امام عينيها. كانت نسخة طبق الاصل من الصورة التي غيرت مجرى حياتها. رفعت يديها المرتجفتين الى وجهها، ارادت ان تهرب الى اي مكان طلبا للنجاة، لكنه كان يسد الطريق امامها صائحا:

«انظري اليها. انظري!»

«لا!»

«لماذا؟ العالم كله ينظر اليها الآن، العالم كله يعلقها في الصالات!»

نظرت متوسلة الى عينيه الخاليتين من الرحمة وتمتمت:

«ارجوك... لا تفتح الموضوع ثانية! لا...»

اجاب وخطوط القسوة تطوق فمه والاتهام يشتعل في عينيه:

«تخجلين! فات اوان الخجل. ارى من الواجب ان نعلقها على جدراننا، الا توافقين؟»

مدت يديها ضارعة وهي تقول:

«آرثر، آرثر كفى! لم اعد اقوى على الاحتمال!»

«وماذا عني انا؟ كيف تظنينني اشعر وانا على هذه الحال؟ كيف اشعر وانا اعلم انك وفيس كاين...؟ سنتان كاملتان وانا اتعذب واحترق، اعلم واتساءل... كم مرة خنتني معه؟»

اغمضت عينيها يمزقها العذاب، لكنه كان قاسيا عديم الاحساس، امسك بكتفيها ولوى جسمها النحيل مكرها اياها على مواجهته. واردف ثائرا:

«اخبريني، اخبريني الحقيقة، اذا كنت تذكرين! وستيفان اسي هل كان يحضر جلستكما؟ اخبريني هل خنتني معه هو الآخر؟»

تحركت تحت قبضته الحديدية وتأوهت:

«اخبرتك الحقيقة مرات ومرات! لم اكن عشيقة فيس كاين ابدا!

لماذا لا تصدقني؟ وستيفان اسي لم اقابله الا مرة واحدة في حياتي. انا لم اخنك ابدا، صدقني!»

انفجر كالعاصفة:

«يا الهي! كيف تستطيعين الاصرار على تلك القصة الملفقة؟ كيف تنكرين هذه الصورة؟»

وهز رأسه باتجاه الصورة، ثم صاح وقد امتقع لونه من الغضب:

«يا الهي! زوجتي انا تعرض جسمها ليراه العالم كله! ليتفرّس فيه كل فاسق على هذه الارض! ثم تأتين وتنكرين فعلتك القذرة بهذه البساطة! ومع من؟ مع رجلين يعرف الجميع انهما لا يتورعان عن اقتراف كل رذيلة وفجور. هل تظنين بأني مغفل مجنون؟»

صاحت بانفعال عصبي:

«نعم. انا انكر ذلك... لا استطيع ان اوضح الامر اكثر، لكن كل كلمة صدرت مني كانت صادقة. الرجل الوحيد الذي عرفته في حياتي هو انت. آه! كيف استطيع ان اجعلك تصدقني؟»

«اصدقك؟»

قال ذلك بقوة جعلتها تصرخ من الألم واردف:

«كنت احمق فيما مضى، لكني صحوت الآن، صحوت من كابوس سنتين في الجحيم، في النار، كيف خنتني؟ كيف منحت ذلك الفاجر ما هو من حق زوجك فقط، حقي انا؟»

جرها اليه بعنف فصاحت متألمة:

«انك تؤلمني... دعني، دعني!»

«أؤلمك؟ انك زوجتي، انك من حقي، لن تفلتي مني هذه المرة!»

حاولت ان تتملص من بين يديه، لكن ذراعيه كانتا تطبقان عليها بلا رحمة وقال:

«لا اظنك ستصرخين، لأنك لا ترغبين بان يحضر الجميع ليروا صورتك الجميلة ويعرفوا حقيقتك».

استماتت في الدفاع عن نفسها واستمر في هجومه العنيف،

تعثرت بطرف السرير فأفلتت منه وهوت على الارض. . . وقفت ثانية ليبدأ هجومه من جديد، غمرت الدموع خديها من الألم والغضب معا، الغضب لكبريائها الجريحة! لم تخفف دموعها من حدة هجومه الشرس، احست بضعفها امام قوته الهائلة، لكنها لم تيأس، واخيرا بدأت تتلاشى، غامت عيناها وشعرت بالغرفة تدور من حولها ثم تهاوت متداعية وغابت عن الوعي. . .

١١ - فات أوان التمني

استيقظت كارين في وقت متأخر من صبيحة اليوم التالي لتجد نفسها في سريرها والى جانبها قدح من الشاي.

كانت وحيدة في الغرفة فالسرير المجاور كان خاليا من صاحبه، تذكرت حادثة ليلة امس فشعرت بالاشمئزاز وغالبت في نفسها الميل الى الغثيان. أحست ببعض الرضوض المؤلمة وبصداع في رأسها، وبانحطاط شامل في معنوياتها.

نزلت عن سريرها وارتدت ثيابها واخذت تسرح شعرها بدون اعتناء. نظرت في المرآة فهالتها الزرقة تحت عينيها. لا يمكنها حتما ان تنزل الى القاعة وهي على تلك الحال! تبدو مخيفة! جلست امام المرآة تغلبها الحيرة، ماذا تفعل لتزيل آثار الكدمات عن وجهها؟ فجأة سمعت طرقا خفيفا على الباب.

لا يمكن ان يكون الطارق آرثر، فهو ليس من الدماثة بحيث يطرق على الباب. . . نظرت الى الباب وانتظرت منتبهة، من الطارق يا ترى؟ أخيراً هزّت كتفيها وهتفت بصوت متعب:

«ادخل».

كانت ليزا، تقف بوجه شاحب ويدين نحيلتين تمسكان بطرفي عباءة نومها. نظرت خلفها قبل ان تغلق الباب، كأنما تخشى ان يراها احد. حملقت كارين مستغربة وسألتها:

«ماذا بك؟ هل تخشين بشيء؟»

هزّت ليزا رأسها وقالت متجهمة:

«ليس أكثر من المعتاد. . . رغبت ان اتحرك قليلا، ربّاه لو بامكاني ان. . .»

أسرعت كارين نحوها تتجلى في عينيها تعابير الخوف:

«ليزا! هل تفكرين ان. . .»

«كلا، أنا لا أفكر في شيء مما تتوهمين».

وجلست ليزا على طرف السرير ودفنت وجهها بين راحتي يديها. وتابعت حديثها:

«أنا خائفة جدا، تعرفين بأني من أولئك الناس الذين يتركون الامور مهما كانت سيئة تسير على هواها، أملا في ان تتحسن في النهاية، لذلك فان خوفي الآن ليس على نفسي. . . هل أنت بخير يا كارين؟»

نظرت كارين مستغربة:

«ماذا تعنين يا ليزا؟»

وقفت ليزا وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ثم قالت:

«سمعتكما الليلة الماضية وتساءلت. . . هل كان آرثر ثملاً؟»

حاولت كارين ان تخفي الرعشة التي ألمّت بها، ورفعت راسها بكبرياء تدعو الى الشفقة وقالت:

«بالطبع لا! لا شك انك تخيلت ما تظنين انك سمعته».

اجابت ليزا بصراحة:

«كلا لم اكن أتخيل، بعد ان تركتني ليلة أمس لم أستطع النوم، نزلت من غرفتي والألم يعصر معدتي والبرد يتغلغل في أطرافي. فكرت ان اتناول شرابا حارا، واذا بآرثر يدخل فشعرت بخوف شديد».

«خفت؟ لماذا؟»

«كان ثملا، وأنا أعرفه جيدا، انه عنيف لا يتورع عن ارتكاب اي فعل وهو على تلك الحال. . . تركته وصعدت الى غرفتي، وبعد ذلك. . كارين، هل الأمور على ما يرام؟»

حاولت كارين جاهدة أن تحافظ على هدوء صوتها وهي تجيب:

«لماذا لا تكون كذلك؟ حدثت مشادة بسيطة بيننا، هذا كل ما هنالك».

«أتمنى ان يكون ما تقولينه صحيحا».

«ليزا ما الذي ترمين اليه بحق السماء؟»

ادارت ليزا ظهرها الى كارين ووقفت ازاء النافذة وسألت:

«كارين هل حدث شيء بينكما وأنتما في جنوب اميركا؟ لأنك على ما أعتقد تركته هناك ورجعت الى لندن».

«ماذا تقولين؟ هذا غير صحيح».

استدارت ليزا وقالت:

«رأيتك في أحد الايام، منذ سنة تقريبا، وحاولت اللحاق بك لكن الشارع كان مزدحما فغبت عن نظري».

احست كارين بارهاق شديد، أخذت شفتها ترتجف فحاولت ان تتغلب على ضعفها، لماذا تصرّ على الانكار بعد كل ما حصل؟ نظرت الى ليزا وقالت:

«ان كنت لا تعرفين القصة بعد، فأنا لم أذهب الى جنوب اميركا قط. لكن آرثر أصرّ ان يظل الأمر سرا. لأنه لا يريد اليزابيت ان تعرف بأننا افترقنا ولا لماذا افترقنا. نحن هنا فقط لأن الاطباء قالوا. . .»

صمتت كارين ولم تكمل جملتها الأخيرة. شهقت ليزا ورفعت يدها الى فمها ثم قالت:

«اذن فالمسألة تتعلق. . . تقصدين. . .»

«اقصد ان كل شيء انتهى، زواجنا انتهى، كل ما بيني وبين آرثر انتهى».

نظرت ليزا بعينين مرتعبتين الى كارين وقالت:

«لماذا. . . لماذا لم تخبريني؟»

«ما الفائدة؟ هل كان بمقدورك ان تفعلي شيئا؟»

استدارت ليزا ثانية وأخذت تنظر من النافذة. ظلت صامتة قليلا ثم همست:

«هل اكتشف آرثر شيئا؟»

«تقصدين الصورة التي نشرت في الصحيفة؟»

«ألم تخبريه؟»
«كلا. سألني فأنكرت، لكنه لم يصدقني».
ارتجفت ليزا وهي تقول:
«يا الهي، أية مصيبة هذه! ماذا بامكاننا ان نفعل؟»
أجابت كارين بصوت ثابت:
«لا شيء».
ردّت ليزا بصوت مختنق:
«كارين، انا آسفة جدا، اتمنى لو أن بامكاني...»
لم تعد كارين تقوى على الاحتمال فقاطعتها قائلة:
«فات أوان التمني. ليس بمقدور احد ان يفعل شيئا الآن. لم يعد آرثر يحبني أو يثق بي، وأنا لا أعتقد ان باستطاعتي ان أحبه من جديد».

قالت ذلك وهبّت الى معطفها ومحفظتها فحملتهما، وغادرت الغرفة بسرعة تاركة ليزا تقف يائسة ازاء النافذة.

هبطت درجات السلّم وهي ترجو ألا تصادف احدا في طريقها. لحسن الحظ لم يرها أحد وهي تغادر الباب الخارجي وتسير متجهة نحو القرية. ركبت أول باص صادفها دون ان تعرف الجهة التي تقصدها. كل همّها كان الابتعاد عن دلرسيك الى أرض غريبة ووجوه غريبة حيث لا حاجة الى التظاهر والتمثيل...

راح الباص يتلوى وينعطف في طريقه المتعرجة بين الروابي والسهول، وكارين تنظر من النافذة لكنها لا ترى شيئا. كانت تفكر فقط باشمئزاز في الحالة التي وصلت اليها، لماذا عليها ان تضحّي؟ لماذا عليها ان تقبل الاهانة والمذلة، من أجل آرثر، واليزابيث، وليزا؟ كم كانت غبية عندما سمعت كلام آرثر ووافقت على المشاركة في تلك المهزلة، والعودة الى دلرسيك...

بعد خمسين دقيقة وصل الباص الى بلدة صغيرة، وعلمت ان الباص الثاني سيقلع بعد ساعتين. أخذت تتجول في سوق البلدة على

غير هدى. فجأة تلبدت السماء بالغيوم وبدأ الرذاذ يتساقط خفيفا، منذرا باقتراب هطول المطر. التفتت حولها فشاهدت مقهى صغيرا على مسافة قريبة، اتجهت تلتجىء فيه من قطرات المطر التي بدأت تكبر تدريجيا. كان المقهى دافئا تتصاعد منه الأبخرة. جلست الى احدى الطاولات وطلبت قدحا من الشاي وبعض الشطائر.

لم تكن تتوقع ان تأكل ربع شطيرة، لكنها وجدت الشطائر والشاي منعشا، فأخذت تأكل بشهية فائقة. كان بودها ان تبقى هناك حتى موعد مغادرة الباص، الا ان المقهى بدأ يحتشد بالناس، فوجدت من الأفضل ان تسرع بالخروج مفسحة المجال لغيرها من رواد المقهى. جرعت ما تبقى في قدحها من الشاي، ثم دفعت حسابها وخرجت.

بقي على موعد انطلاق الباص ساعة اخرى. فكرت بالانتظار داخل الباص، وتحركت باتجاهه، واذا بقدمها تنزلق امام قناة صغيرة كانت تعترض طريقها، فارتدت الى الوراء فاتحة ذراعيها في محاولة يائسة لتجنب السقوط في القناة. ترنحت متعثرة وقد فقدت توازنها، واخذت تسمع صيحات من حولها وأصوات خطوات تهرع باتجاهها، فجأة أحست بصدمة شديدة تطوح بها في الهواء، وراحت الابنية والسماء تدور امام عينيها وهي تلتف على نفسها كالمغزل، ثم تهوي الى الارض المبتلة بماء المطر. كانت الصدمة قوية لدرجة انها فقدت القدرة على التنفس والحركة، وبذلت جهدها لتقف على قدميها من جديد، لكنها في الواقع كانت تنبطح على وجهها هامدة، وما هي الا لحظات حتى أظلمت الدنيا امام عينيها وغابت عن الوجود...

تجمّع حولها جمع غفير من المارة الذين شهدوا الحادث، بينهم سائق السيارة الذي وقف بجانبها ينظر اليها بعينين ذاهلتين. أسرع شرطي فالقى عليها معطفه وأسند رأسها بيديه الى ان وصلت سيارة الاسعاف، ونقلتها الى مستشفى البلدة حيث فحصها الطبيب

المناوب، وأزالت الممرضات الوحل عن وجهها ثم ادخلوها غرفة الاشعة.

عندما فتحت عينيها ألفت نفسها في سرير نظيف، وسمعت صوتا ناعما يقول:

«استيقظت الآن؟ حسنا، كيف تشعرين؟»

رفعت كارين عينيها الى الأعلى فرأت ممرضة صبية تقف الى جوار سريرها، فهمست تسألها:

«ماذا حدث؟ اين انا؟»

«انت في المستشفى، سيصل الطبيب بعد لحظات».

أخذت تستعيد وعيها بسرعة، احست بصداع شديد في رأسها وبألم حاد في يدها اليمنى، وبضعضعة في بقية أعضاء جسمها. أدركت ان أشياء كثيرة حدثت لكنها كانت قاصرة عن ادراك طبيعتها. أحست كأنها عاشت كابوسا لم تستفق منه بعد.. وتذكرت انها ركبت باصا، ثم دخلت مقهى، ثم...

سمعت صوتا يناديها باسمها: «كيف انت الآن سيدة روذكليف؟». نظرت الى صاحب الصوت الذي كان يقف بجانب سريرها، وأدركت انه طبيب المستشفى الذي تابع يقول:

«ألا زلت قلقة؟ متى أكلت آخر مرة هل تتذكرين؟»

همست قائلة:

«كيف عرفت اسمي؟»

كان معتادا على مثل هذه التساؤلات فابتسم قائلا:

«كان علينا ان نبحث في حاجياتك لمعرفة هويتك، حتى نتصل بأهلك أو أقربائك الذين ولا شك سيقلقون من جراء تأخرك عليهم».

حاولت كارين ان تجلس وقد تملكها خوف مفاجىء، تخيلت وجه اليزابيت الممتقع وهي تستقبل الشرطة في دلرسبك لاعلامها عن الحادث، فقالت بصوت يشوبه القلق:

«أرجوك، يجب ان اتصل هاتفيا، يجب ان اخبر...»

وضع الطبيب يده على كتفها يمنعها من الجلوس وقال مبتسما:

«اهدأي، سنقوم نحن بذلك، أظن انك زوجة آرثر؟»

استسلمت كارين واستلقت هادئة في سريرها، كيف عرف الطبيب اسم زوجها؟ بدأت تتذكر لماذا هربت من دلرسبك هذا الصباح، هل كان هذا الصباح، كم مضى عليها من الوقت في المستشفى؟ كم هي الساعة الآن؟ حاولت رفع ذراعها لتنظر الى ساعتها، ومرة اخرى هزّ الطبيب رأسه قائلا:

«لا تقلقي أيتها السيدة الشابة، أخبريني الآن متى تناولت الطعام آخر مرة؟»

«حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر».

«هذا حسن، نستطيع نقلك الى غرفة التجبير فورا».

انفرجت شفتا كارين الجافتان وهمست:

«أريد ان اشرب من فضلك».

نظر الى الممرضة قائلا:

«دعيها تبلل شفتيها فقط».

ثم نظر الى كارين وأردف:

«يجب تخديرك الآن حتى نتمكن من تجبير ذراعك، وعندما تعودين الى سريرك سنقدم لك قدحا من الشاي».

سألت قائلة:

«ذراعي فقط؟»

«ألا يكفي ذلك؟ بعد ان أجرينا فحص الأشعة تبين لنا انه باستثناء ذراعك وبعض الرضوض، فانت لا تزالين ولله الحمد قطعة واحدة، ستبقين في المستشفى يوما أو اثنين ثم سنسمح لك بالخروج. احمدي الله انك نجوت بأعجوبة هذه المرة».

بعد اقل من ساعة كانت كارين ثانية في سريرها تستفيق من تأثير المخدر. بين اليقظة والغفوة، شربت الشاي الذي قدمته اليها

الممرضة، كان مذاقه شهيا كرحيق الازهار. ثم احست برغبة في الاستغراق في النوم، لكنها لم تستطع اذ دخل الشرطي الذي شهد الحادث، يطلب منها الاجابة على بعض الاسئلة. لم يكن لديها الكثير لتدلي به. قالت بأن قدمها انزلقت فوقعت، ذلك كل ما تذكره. لم يرد الشرطي ازعاجها أكثر فسألها سؤاله الاخير:

«هل شاهدت السيارة؟»

«اذن سيارة تلك التي صدمتني! لكن أرجو ان تصغي اليّ، تلك لم تكن خطيئة السائق، لا بد أنني وقعت تماما أمام السيارة فلم يستطع ان يتجنبني».

«نعم، يبدو انك وقعت على مقدمة السيارة، فقذفت بك جانبا. حمدا لله على سلامتك».

ما كاد الشرطي ينصرف حتى استغرقت في سبات عميق. صحت بعد مدة على صوت الممرضة وهي توقظها بوجه بشوش قائلة:

«هوذا زوجك سيدة رادكليف».

فتحت كارين عينيها لترى آرثر واقفا قرب السرير والى جانبه اليزابيت.

نظرت اليه مليًا وقد تذكرت كل شيء، كان بودها لو تصرخ طالبة منه ألا يريها وجهه بعد اليوم، لكن اليزابيت كانت هناك الى جانبه وعلائم الاسى والألم بادية على وجهها الحنون... اقترب آرثر منها لا تبدو على وجهه تعابير الندم والحسرة، بل لاح متجهّما عابسا وقال:

«كيف انت كارين؟ كيف تشعرين؟»

ثم انحنى عليها بقبلة باردة كالثلج. ارادت ان تصرخ به مرة ثانية، لكن اليزابيت اقتربت منها وقبلتها هي الاخرى، فلم تملك الا ان تجيب بصوت منخفض:

«لا بأس، صداع طفيف، لازلت غير متأكدة مما حدث».

جلست اليزابيت بجوارها على السرير، ونظرت الى كارين بعينين شديدتي التأثير وقالت:

«يا حبيبتي المسكينة! كنت على وشك ان تقتلي، عندما دخل علينا الشرطي...».

قاطعها آرثر موجّها حديثه الى كارين قائلا:

«لا استطيع ان افهم ما الذي كنت تفعلينه هنا، لا احد منّا يعرف السبب...»

قاطعته اليزابيت بصوت صارم:

«آرثر. هذا ليس وقتا لالقاء مثل هذه الاسئلة، وبعد فان كارين حرة في أن تذهب حيث ترغب، ولا أظن انه من الواجب عليها اعلامك عن كل خطوة تخطوها».

غتم معتذرا بصوت أجوف:

«آسف».

ارتاحت اليزابيت لاعتذاره، دون ان تلاحظ اللهجة الباردة التي عبر فيها عن اعتذاره.

بعد فترة صمت قصيرة تكلم آرثر ببروده المعهود قائلا:

«هل تحتاجين اي شيء؟»

أجابت بهدوء:

«كلا شكرا، اليزابيت تعرف ما أريد».

«وهل يعتنون بك جيدا؟»

«كل العناية».

«توجد غرفة خاصة، سأعمل على ان ينقلوك اليها».

«لا أريد غرفة خاصة، لن امكث أكثر من يوم أو اثنين».

وسادت فترة صمت أخرى قطعتها اليزابيت بقولها:

«أظن من الأفضل ان نترك كارين تنال قسطا من الراحة، يبدو انها شديدة التعب».

احتج آرثر بقوله:

«لم يحن وقت الزيارة بعد».

لكن اليزابيت أصرت على ترك كارين لراحتها وقالت:

«سنتصل بك غداً هاتفيا لنسأل عن صحتك، أتمنى ان تكوني احسن بكثير يا حبيبتي».

وقفت اليزابيت وقبّلت كارين... واتجهت نحو الباب قائلة:

«سانتظرك عند الباب يا آرثر».

غاص قلب كارين عندما بقيت وحدها مع آرثر. اقترب منها قائلا:

«أعتقد انه لا يوجد ما نقوله».

«أعتقد ذلك».

«اذن الى اللقاء».

واستدار متجها نحو الباب، تاركاً الغرفة وراءه تغرق في صمت كئيب.

١٢ ـ هل تغفرين لي؟

امضت كارين ليلة أرق مضنية بدت وكأن ليس لها نهاية، تلاشى فيها كل أمل بالنوم، حتى حبّة المنوّم التي أعطتها اياها الممرضة الليلية كان تأثيرها محدودا، فلم تنم كارين أكثر من ثلاث أو اربع ساعات نوماً متقطعاً لم يقو على التخفيف من وطأة ما كان ينتابها من ارهاق جسدي واجهاد عقلي. في بعض لحظات سباتها كانت تطوف في مخيلتها صور من تعاسة زواجها، وفي لحظات اخرى كان ينقلها خيالها الى عالم مستقبلها المجهول، حيث لم تلحظ فيه الا النزر اليسير من الصور المليئة بالوعود. وعندما حضر الطبيب في الصباح ورأى اللون المحموم الذي يضرج خديها، تلاشت ابتسامته، وقال:

«سمعت انك أمضيت ليلة مضنية».

حاولت ان تبتسم، واشارت الى يدها المجبّسة قائلة:

«لم اعتد على هذا بعد».

«سيعوق حركة يدك بعض الوقت».

ثم فحص أصابعها المتورمة وسأل:

«هل تشعرين بتصلّبها؟ سنعمد الى شق الجبس عنها أحيانا، الآن دعيني افحص بقية الاصابة».

بعد أن أنهى فحوصه أعاد الأغطية عليها، وعبس قائلا:

«هل هناك ما يقلقك، سيدة رادكليف؟»

وجّه سؤاله بلهجة ذات مغزى، فالتفتت اليه وهزّت رأسها بالنفي. ما الفائدة من اخباره بقصة زواجها المهشم؟ وبأن كل يوم مر ويمر عليها مع آرثر ما هو الا دور في تمثيلية مزيفة؟

وتابع حديثه بلطف:

«غالبا ما يعاني المرضى من بعض المشاكل، كما تعرفين، وأكثر ما

نخشاه هو ان تكون تلك المشاكل سببا من اسباب اعاقة سرعة الشفاء. لا ترددي في طلب أية مساعدة تشعرين ان في استطاعتنا تقديمها».

أثرت فيها كلماته الرقيقة الدمثة، فوجمت عن الكلام لعدة لحظات وقد غصّت عيناها بالدموع فأشاحت بوجهها عنه. آلمها كثيرا ان يهتم انسان غريب بما يقلقها ويخيفها بينما آرثر، زوجها، لم يبد ذرة مهما كانت ضئيلة من الاسف أو الاهتمام.

سمعت صوت الطبيب يكلمها:

«اسمعي، نحن لا نجعل مرضانا يبكون!»

مسحت عينيها وهي تقول:

«اذن لن أسمح لنفسي ان اخرق تقاليدكم».

«حسنا. ستتحسنين بسرعة على ما أعتقد، وسننقلك الى القاعة الكبيرة الآن. وجودك مع مجموعة من المريضات سيفيدك جدا».

ابتسم لها مشجعا، وانصرف تاركا الممرضة تساعد كارين على الانتقال الى القاعة.

حضر آرثر في المساء لزيارة كارين يحمل بعض الزهور والفواكه، وتصحبه ليزا. التفتت اليها عيون المريضات وهي تسير ببطء بين صفوف الأسرة. كانت في كامل زينتها لا يبدو عليها اي أثر من آثار المرض الذي كانت تعاني منه خلال الاسبوع المنصرم. مشت يتبعها آرثر يحمل في يده معطفها الجميل.

قبلت كارين قبلة مجاملة، وتبادلت معها بعض عبارات الممازحة التقليدية... أما آرثر فانه وقف قليلا ثم بدا عليه الانزعاج من الاصوات العالية التي كانت تصدر عن زائري المريضات الاخر، فاعتذر قائلا:

«سأترككما تتحدثان ، حسنا؟»

هزّت كارين رأسها، لم تكن ترغب ان يمكث معها ويبادلها الحديث، خاصة في غياب الزيابيب. أما ليزا فانها جلست الى جانبها

يبدو عليها الضيق. تحدثت عن الأيام المملة التي انقضت في دلرسك، وتجنبت الحديث عن مشكلة الحمل التي كانت تعاني منها، فسألتها كارين:

«هل اخبرت أمك بالأمر؟»

رمشت عينا ليزا ثم بان عليها العبوس وهي تقول:

«ماذا؟ نعم أخبرتها هذا الصباح. حادثتك المؤسفة وزيارتها الخاصة للمستشفى أستأثرا بكل حديثها أمس، كما شغلتها زيارة صديقها هيرلندر بعد الظهر».

«هل استثارها الفرح؟»

«لزيارة صديقها الالماني؟»

«كلا، أقصد الطفل طبعا».

«تستطيعين القول أنها كادت تطير من الفرح. أما بالنسبة لي فانه سيدهشني كثيرا اذا استطعت ان اتحمل هذه الحالة مدة اسبوع أو اثنين». ثم نظرت حولها بنفاد صبر وسألت:

«اين ذهب آرثر بحق الشيطان؟»

لم تجبها كارين على سؤالها، بل اختلست نظرة الى ساعة القاعة. مع ان ساعات الزيارة كانت أحلى الساعات بالنسبة الى المريضات، غير انها تمنت لو ان هذه الزيارة انقضت قبل ان تبدأ، كما أنها كانت متأكدة بأن ليزا تمنت الأمنية ذاتها.

انحنت ليزا أخيراً نحو كارين وهمست:

«هل تتأثرين لو أن آرثر أعادني الى البيت قبل انتهاء وقت الزيارة؟ المستشفيات تثير أعصابي».

هزّت كارين رأسها واندست متعبة تحت أغطية سريرها، ثم أدارت وجهها الى ليزا قائلة:

«بدأت اشعر بالاعياء. اشكرك لهذه الزيارة، ابحثي عن آرثر فقد تجدينه يتحدث الى الممرضة، أو يقف بجوار سيارته. أخبريه ألاّ حاجة لازعاج نفسه بالدخول ليقول لي طابت ليلتك».

أغمضت عينيها، وترددت ليزا قليلا قبل ان تحمل حقيبتها وتتجه نحو باب القاعة. وظلت كارين مصرة على اغماض عينيها فلم تشاهد ليزا وهي تلتقي بآرثر عند الباب، ولم ترها وهي تدس يدها تحت ذراعه تحثه على الابتعاد.

لم تدر كارين أتكون آسفة أم شاكرة عندما قرر الطبيب، في صبيحة اليوم التالي، تمديد مدة بقائها يوما آخر. كانت تشعر بتحسن واضح في جميع الاجزاء المصابة من جسمها، واستعادت حالتها الطبيعية بسرعة، ومع ذلك شعرت بارتياح شديد لبقائها أربعا وعشرين ساعة اخرى.

كان احساسها بالقلق يتزايد مع انقضاء كل ساعة من ساعات النهار، فراحت تحاول جاهدة اقصاء الأفكار الموجعة بسبب اقتراب عودتها الى دلوسبك في اليوم التالي. لو ان أمامها أية وسيلة للخلاص! لم تعد تحتمل احتقار آرثر واهماله القاسي لمشاعرها، لماذا يجب ان يكرهها؟... فكرت كثيرا، لكنها لم تخلص الى حل شاف لمشاكلها، الحل الوحيد برأيها هو اخبار اليزابيت بالحقيقة، وكان ذلك مستحيلا. كم تمنت لو ان لديها بعض الاقارب تبثهم همومها وآلامها... توفي والداها منذ مدة وامست وحيدة في هذا العالم الذي لا يرحم.

عندما بدأ موعد الزيارة المسائية بالاقتراب، وعاودها شعور الانقباض المألوف وتمنت لو ان تلك الساعة التي كانت ترتقبها المريضات بنفاد صبر أتت وانقضت... لكنها استفاقت من تمنياتها، بعد قليل، على صوت انفتاح الباب ودخول الزائرين. نظرت باتجاه الباب ودهشت لرؤية زائريها. لم يحضر آرثر هذه المرة، بل اليزابيت يرافقها صديقها الالماني هيرلتدنر.

بدت اليزابيت بكامل حيويتها ونشاطها وهي تقترب من سرير كارين، وقد تلاشى عن محياها الشحوب كل أثر من آثار المرض، أية معجزة غيّرتها بهذه السرعة! ظهر الارتياح جليا على وجه اليزابيت

وهي تقول:

«هذا رائع! كنت أنتظر يا حبيبتي بفارغ الصبر امتثالك للشفاء، والآن وقد تأكدت من ذلك سأزف اليك هذا النبأ. سأسافر الى المانيا بعد يومين».

تملكت كارين الدهشة وتمتمت:

«ألمانيا!»

تطوع هيرلتدنر بالجواب قائلا:

«سأصطحب اليزابيت معي عند عودتي الى هناك».

لم تصدق كارين أذنيها وقالت بذهول شديد:

«بعد يومين! هل انت ذاهبة لقضاء عطلة؟»

ابتسمت اليزابيت وهي ترمق صديقها وقالت:

«كلا، هلا أخبرتها انت بالأمر؟»

تبادل الألماني مع اليزابيت النظرات ثم التفت الى كارين قائلا:

«لا تدهشي كثيرا، يا عزيزتي، انني اتمنى كل خير للسيدة اليزابيت... فقدت زوجتي الحبيبة منذ خمس سنوات، وكانت تعاني من المرض ذاته. لم يستطع الاطباء يومذاك ان يقدموا الا القدر اليسير من المساعدة، وما كان علينا الا ان نقعد ونراقب ذلك الداء الرهيب وهو يلتهم تدريجيا حياتها الغالية. لو كان بالمستطاع ابقاؤها على قيد الحياة بضع سنوات اخرى، لكان انقاذها ممكنا... ذلك ان احدى العيادات المشهورة على الحدود النمساوية، قريبا من المدينة التي اسكن فيها، أعلنت مؤخرا انها تمكنت من ايجاد العلاج الشافي لهذا الداء الخطير. ومع ان بعض الاخصائيين في العالم ينظرون بشيء من الشك الى مدى فعالية هذا العلاج بالنسبة الى الداء المذكور، فاني رأيت بأم عيني بعض المرضى المصابين بالداء ذاته يخرجون من تلك العيادة وقلوبهم تطفح بسعادة الشفاء، وعيونهم تتطلع الى المستقبل بمنظار الأمل والرجاء».

سألت كارين وقد اعتراها بعض القلق:

«هل تعتقد أن لا مجال للخوف؟»
هزّ هيرلندنر رأسه وقال:
«لا مجال للخوف البتة، العيادة ذات سمعة عالية وأطباؤها أصحاب شهرة معروفة».
تدخلت اليزابيت قائلة:
«انهم يخططون كل صغيرة وكبيرة في الجسم، طبعا تختلف طبيعة الداء بين جسم وآخر، والأطباء مستمرون في أبحاثهم الهامة، غير انهم مقتنعون بأن ما توصلوا اليه من علاج يصلح لاستئصال ذلك الداء اللعين في اكثر الحالات».
توقفت قليلا ثم تابعت بلهجة حازمة:
«مهما يكن من أمر، فقد عقدت عزمي على السفر. لن أخسر الأ القليل لكني قد أربح الكثير. وافقت على اقتراح صديقي هيرلندنر. سيرافقني الى هناك وسيزورني أثناء وجودي في العيادة، كما انه رحّب باستضافة من يشاء أن يأتي لزيارتي هناك، آرثر، ليزا، انت، وفي اي وقت كان، ذلك أن أمد اقامتي في العيادة قد يستغرق مدة ليست بالقصيرة».
أخذت كارين نفسا عميقا وسألت:
«ما رأي آرثر حول هذا الموضوع؟»
اجابت اليزابيت بشيء من الحسرة:
«أبدى امتعاضه وعدم رضاه، غير انه لن يجعلني أعدل عن قراري هذه المرة».
قال هيرلندنر:
«ولدك ينظر الى الموضوع بالريبة والشك يا عزيزتي، وأنا افهم مشاعره بالنسبة الى ذلك. لو كنت مكانه لساورتني الشكوك ذاتها. لكنك أنت صاحبة القرار أولا واخيرا. فاذا كنت ترغبين في اعادة النظر مرة اخرى، أو حتى العدول عن رأيك، فلا ترددي لحظة، سأفهم وضعك».

هزّت اليزابيت رأسها باصرار قائلة:
«كلا، اني أعتبر اقتراحك نعمة حلّت عليّ من السماء، لم أكن أدري ما انا فاعلة حتى تعرفت عليك، خاصة وأن الطريقة التي اتبعها آرثر لم تفلح في اظهار أية بارقة امل».
نظرت اليها كارين بمزيج من الخوف والاعجاب، فابتسمت اليزابيت وأردفت:
«كانت فكرة جميلة، جمع الشمل في دلرسيك، رحبت بها كثيرا مع علمي بمدى الظلامة التي انطوت عليها. آرثر بعيد جدا عن مقر عمله، ووضع كليف يدعو الى الشفقة، وأنت لا أدري مقدار ما لحق بك من ضيم!»
سكتت قليلا ثم أمعنت النظر بكارين واستطردت:
«أعرف ان الأمور ليست على ما يرام بينك وبين آرثر، على الرغم مما تبديانه لاقناعي عكس ذلك. لا أعرف طبيعة الخلاف لكني على استعداد تام لبذل كل ما بوسعي لتسويته. لا اطمع بالتدخل بدون موافقتكما، لكن يجب ان تسوّيا أموركما بعد عودتك الى البيت، كما يجب ان تفعل ليزا وزوجها ذلك. اني لست راضية عن هذه الفوضى التي تعيشونها في دلرسيك، وكأنكم تعدون عليّ الساعات تنتظرون الوقت الذي اخسر فيه معركتي مع مرضي».
توقفت اليزابيت قليلا تستعيد انفاسها ثم تابعت:
«حسنا، سأتابع معركتي لكن بطريقتي الخاصة. ومما يجعل المعركة أكثر يسرا بالنسبة لي معرفتي أن أولادي عادوا الى بيوتهم ليعيدوا تنظيم حياتهم بأنفسهم. وبمشيئة الله سأحمل حفيدي بين ذراعي قريبا».
أنهت حديثها واحتضنت كارين بين ذراعيها التي شعرت بحب اليزابيت الحقيقي فتمتمت هامسة:
«سأصلي من أجلك في كل لحظة من لحظات غيابك، ضارعة أن تعودي الينا معافاة سالمة».

بعد قليل انتهى وقت الزيارة، فانصرفت اليزابيت مع صديقها الالماني واستلقت كارين في سريرها يتملكها شعور غريب. ستسافر اليزابيت الى المانيا وتنتهي بذلك التمثيلية التي أكرهت على القيام بدور البطولة فيها. اذن بعد أسبوع على ابعد احتمال، ستعود الى لندن وربما الى السيدة بيجتز، وستتحرر أخيرا من هذا الجو البغيض الذي سيطر على حياتها خلال الأسابيع القليلة الماضية. ستكتب الى اليزابيت ولا شك حتى لا تسبب لها قلقا قد يعوق من فعالية معالجتها الجديدة. لن يكون من الصعب اخفاء الحقيقة عنها الى ان تشفى، وبعد شفائها لن تسبب معرفتها للحقيقة اي خطر على حياتها. لا يمكن للسر ان يظل مكتوما الى الأبد. أما بالنسبة الى ليزا... عليها ان تخط مصيرها بنفسها...

أهم ما في الأمر انها ستتحرر من آرثر خلال ايام قليلة، وبعد عودتها الى لندن لن تكون بحاجة الى رؤيته على الاطلاق. أي شيء يحتاج الى مناقشة يمكن ان يتم بواسطة الهاتف. لن يكون بمقدوره ان يجرحها ويعذبها بعد الآن، لأنها ستصبح حرة! وهذا ما كانت تريده...

كان شعورها الغريب لا يزال يتملكها عندما حضر آرثر في صبيحة اليوم التالي، ليخرجها من المستشفى. جلب لها ملابس نظيفة وانتظرها في الردهة الخارجية حتى ترتديها وتودّع المريضات والممرضات. اخيرا خرجت من القاعة الى حيث كان آرثر ينتظرها بنفاد صبر.

نظر اليها متمعنا وهو يأخذ حقيبتها من الممرضة. ثم قال:

«أرجو ان تكون الثياب التي احضرتها لك مناسبة، لم ادر ما أحضر لك بسبب ذراعك».

اجابته باختصار:

«انها على ما يرام».

«أخذت ثيابك الملطخة التي كنت ترتدينها اثناء الحادث الى

المغسلة لتنظيفها».

قالت بصوت جاف:

«لا ضرورة لذلك».

وسألت نفسها: كيف يمكنه ان يتحدث بتلك السهولة كأن شيئا لم يتغير؟ كأنهما لا يزالان يمثلان... كأنه نسي ما فعل منذ أربع ليال، عندما دخل عليها يكيل اليها الاتهامات ثم يعتدي عليها بوحشية رجال الغاب. هل يتصور انها نسيت كل ذلك؟

مشت بجانبه الى السيارة، كانت تتمنى لو تستطيع الا ترافقه وتعود معه الى دلرسيك. لكن لا بأس في التمثيل بضعة أيام اخرى الى ان تسافر اليزابيت وبعدها، من يدري...

فتح لها باب السيارة وساعدها على الدخول. وضع الحقيبة في المؤخرة ثم قاد السيارة دون ان ينطق بحرف. راحت كارين تنظر من النافذة مرتاحة الى صمته. بعد بضعة اميال توقف امام احد الفنادق القديمة وقال:

«سنتناول شيئا من الشراب».

أجابته بجفاء:

«لا أريد شرابا».

لكنه فتح باب السيارة وهو يقول:

«لكني اريد. تعالي يا كارو فانت أحوج ما تكونين لكأس من الشراب يعيد اليك بعض النشاط».

نزلت من السيارة ودخلت معه الفندق حيث جلسا الى احدى الطاولات في قاعة المطعم. سألها عما تريد ان تشرب لكنها اعتذرت مصرة على عدم تناول اي شيء، ولما اخذ يلح عليها الحاحا شديدا، وقفت قائلة:

«سأنتظرك في الخارج».

استدارت خارجة، وبعد قليل خرج آرثر يبدو عليه الغضب واتجه نحو السيارة، وما هي الا لحظات حتى كانا ينطلقان من جديد في

طريقهما الى دلرسبك.

لم ينطق آرثر طوال الطريق بأية كلمة حتى وصلا الى البيت، وقبل ان يترجلا التفت الى كارين قائلا:

«هل عرفت بأمر اليزابيث؟»

«نعم اخبرتني ليلة امس».

«ما هو رأيك؟»

ردّت باقتضاب:

«أعتقد انه من الخير لها ان تذهب، ومن الافضل لك ألا تحاول منعها».

«وبعد ان تذهب؟»

هزّت كارين كتفيها وقالت:

«لا أعرف، لأني لا أفهم لماذا تسأل».

«كارين، يجب ان تصغي اليّ!»

«ألا تظن بأني اصغيت ما فيه الكفاية؟»

وبدون ان تنتظر منه جوابا، فتحت باب السيارة واتجهت الى البيت حيث قابلتها اليزابيث بالترحيب الحار، وقبل ان يدخل آرثر سمعت صوت سيارة اخرى تقف امام البيت، وبعد لحظات دخل القاعة يتبعه هيرلندنر.

كانت الازهار تزين جميع أرجاء القاعة ابتهاجا بمقدم كارين، كما أعد أهل البيت وجبة غداء فاخرة على شرفها. نظرت كارين حولها فلم تجد ليزا... وكأنما شعرت اليزابيث بذلك فقالت هامسة:

«آسفة، اضطرت للسفر هذا الصباح. لم تستطع الانتظار هنا حتى مجيء كليفورد، اذ كانت تحب ان تزف له نبأ حملها بأسرع وقت ممكن، فوافقتها على رغبتها وسمحت لها بالسفر».

جلس الجميع الى مائدة الغداء. تساءلت كارين بينها وبين نفسها عن السبب الذي دعا ليزا الى السفر بهذه السرعة. لا شك أنها هربت من لقائها. أما آرثر فانه جلس منكمشا على نفسه، هل كان ذلك بسبب رحيل ليزا المفاجىء؟ أم لأنه كان متحفظا ازاء هيرلندنر؟

لكن أليس من الطبيعي ان يبدو آرثر بمثل هذا التحفظ تجاه الغريب؟ كان آرثر صاحب النفوذ الرئيسي في حياة اليزابيث منذ وفاة زوجها، فكيف لا يشعر بالغيظ من تطفل هذا الرجل الذي أصبح فجأة صاحب تأثير شديد على اليزابيث؟ ربما لا ينتبه هيرلندنر الى ما يعتمل في داخل آرثر من احساس تجاهه، لكن اليزابيث، التي كانت تعرف كل خفايا طبيعة ولدها، لا بد ان تدرك أسباب الكآبة المتجلية على ملامحه.

نظرت الى اليزابيث فوجدتها في ذروة السعادة. كانت مرتاحة لمجاملة هيرلندنر ومغتبطة لاهتمامه البالغ بها، كالزهرة المتفتحة للشمس بعد ليل طويل. كان وجهها يسطع بنور ساحر أزاح عنه حجاب سنيها المتقدمة، وكشف من جديد جمال الصبا البهيج، وبغتة أدركت كارين ما كان يحدث لاليزابيث...

يقال ان الحب يصنع المعجزات، فهل كانت تلك بداية معجزة اليزابيث الخاصة؟

بينما كانت كارين غارقة في بحر تأملاتها، سمعت هيرلندنر يسأل اليزابيث اذا كانت ترغب في الخروج برفقته لنزهة قصيرة، وافقت اليزابيث على طلبه بحرارة ووجهها يطفح بالبشر. التفتت كارين اليه عندما سمعته يوجه سؤاله اليها قائلا:

«هل ترغبين بمصاحبتنا انت وزوجك؟»

تكفل آرثر بالاجابة عنها، قائلا بصوت فيه بعض الخشونة:

«لا اظن ذلك، شكرا، زوجتي بحاجة الى الراحة».

ما ان خرجت اليزابيث وصديقها الألماني وتواريا عن الأنظار، حتى انقض آرثر على كارين وحملها بين ذراعيه كالريشة، وانطلق يصعد بها درجات السلم وهي مذهولة، وراحت تسأله عن سبب تصرفه الغريب، لكنه لم يجبها بحرف، ولم يتوقف الا بعد ان أدخلها غرفة نومها وألقى بها بتمهل على السرير. ثم ركع على ركبتيه بجوارها وهو يلهث من التعب، ونظر الى عينيها المرتعبتين وصاح

بصوت محموم:

«لماذا يا كارين؟ لماذا؟»

ارتعشت كارين من الخوف، وراحت تبلل شفتيها الجافتين بطرف لسانها ثم سألت:

«لماذا ؟ لماذا ماذا؟ ما الذي تعنيه يا آرثر؟ ماذا تريد؟»

«لماذا لم تخبريني؟»

طغى الضعف عليها بغتة، وأشاحت بوجهها بعيدا عنه وهي تحاول النهوض عن السرير قائلة :

«أي شيء لم اخبرك به؟ ما الذي تريد ان تعرفه بعد؟ بالله عليك لا تبدأ القصة من جديد، لم أعد أقوى على الاحتمال!»

أمسكها من رأسها وأدار وجهها باتجاهه وراح يتمتم:

«لكن لماذا؟ لماذا هذا الصمت يا كارين؟ مدة سنتين... سنتين طويلتين... كل ذلك بسبب تلك الخليعة الانانية... بامكاني ان اقتلها!»

ارتجفت كارين وشعرت بالدوار يجتاح كل حواسها، معنى واحد فقط يمكن ان يكون لكلمات آرثر هذه! وهمست:

«ماذا؟ من؟ لا أدري ما تقول»

زمجر قائلا:

«ليزا! من غيرها؟»

نظر آرثر الى عيني كارين غير المصدقتين وقال بمرارة:

«نعم اخبرتني... أو بالأحرى انتزعت منها الحقيقة انتزاعا».

هزّت كارين رأسها باستغراب، لا يمكن ان تعترف ليزا بالحقيقة من تلقاء نفسها، أما انتزاع الحقيقة منها فذلك أمر جائز، لكن كيف؟ أخيرا تلعثمت هامسة:

«لكن كيف كان ذلك؟ ما الذي خطر ببالك حتى سألتها الحقيقة؟ ولماذا ليزا بالذات؟»

وقف آرثر على قدميه واتجه نحو النافذة، حيث راح ينظر الى البعيد... وبدأ حديثه قائلا:

«عندما زرتك في المستشفى برفقة ليزا، تذكرين أني تركتها معك وخرجت، ذهبت آنذاك الى الطبيب أسأله عن صحتك. ففاجأني بأشياء غريبة. قال انهم أتوا بك الى المستشفى وأنت في حالة غيبوبة، وسمعك تهذين بكلمات وأسماء مبهمة مثل الصورة! ليزا! ثم سمعك تنادين اسمي مرات عديدة وتتلفظين بكلمات فهم منها انك تحاولين اقناعي بشيء ما، وأنني لا أحاول الاصغاء اليك. وأخيرا نظر الطبيب اليَّ نظرة اتهام، وقال انني استطيع ان أساعدك على الشفاء اذا جعلتك تتحررين من قلق وعذاب غامضين كانا يسيطران عليك».

تنهد آرثر وعاد ليقف الى جانبها، نظر اليها بعينين قلقتين وتابع حديثه:

«رجعت من غرفة الطبيب فوجدت ليزا أمامي تنتظرني، وتطلب مني ان نسارع بالانصراف. رافقتها الى السيارة وخلال طريق العودة كنت افكر بك، رأيتك بعين خيالي مستلقية على سريرك وشعرك الطويل متهدل حول كتفيك. واذا بي فجأة اجد نفسي انظر الى شعر ليزا، اجل شعر ليزا... لقد كان في الماضي طويلا حريري الملمس، بني اللون، شديد الشبه بشعرك، تذكرت كم كانت كثيرة الاهتمام به، حتى في طفولتها كانت تجلس ساعات وساعات أمام المرآة تسرحه وتبدي اعجابها به. لم أكن أتصور انها في يوم ما يمكن ان تضحي به وتقصه، لكنها فعلت، وصبغته بلون يميل الى البياض، فلماذا؟ لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل، ولكني وجدت نفسي فجأة أتساءل لماذا فعلت ذلك؟ لماذا قصت شعرها الذي تعجب به؟ لماذا غيّرت لونه الجميل؟ ولأول مرة أدركت شدة الشبه بينكما في الشعر، في الطول، في البنية، أدركت أنكما متماثلتان في ذلك كله، وتذكرت أول مرة سمعت باسم فينس كاين، كان من فمها هي، تذكرت أنها أعلمتني بأنها كانت ترغب كثيرا في لقائه. لماذا لم أتذكر كل هذه الاشياء من قبل؟ لا ادري... رحت أسائل نفسي، هل من الممكن ان تكون اللوحة لها وليست لك؟ يا لحماقتي! وعندما

وصلنا الى البيت كان صبري قد نفد، فأمسكت بها بغتة وفاجأتها بالسؤال، واذ بوجهها يصفر اصفرار الموت، وتتملص من بين يدي هاربة وهي تصيح: اذن نكثت بالعهد وخانتني!»

صاحت كارين:

«لكن لم أفعل!»

«لم تفعلي ماذا؟ لم تخوني الوعد الذي قطعته على نفسك لليزا بأن تحافظي على سرّها القذر، حتى ولو على حساب زواجك! أستحلفك بالله يا كارين، أخبريني الحقيقة! اخبريني ماذا حدث؟ كيف ورطتك ليزا بتلك القصة؟ لماذا بقيت صامتة طيلة تلك المدة تتحملين كل هذا العذاب؟»

«ألم تخبرك بكامل القصة؟»

«قالت انها لم تكن تعرف شكوكي، واعتقادي بأن اللوحة لك، وبالتالي ظننت انك انت عشيقة فينس كاين، وهي لم تعرف ما حل بيننا بسبب ذلك. قالت انها لم تستطع مقاومة اغراء فينس كاين، ورضيت أن يرسم لها تلك اللوحة بعد ان وعدها بالا يبيعها لأحد. ذلك كل ما أخبرتني به. والآن خبّريني ما علاقتك بتلك القصة القذرة؟»

شعرت كارين بالاعياء، وأخذت اطرافها ترتجف. لم تستطع ان تصدّق أن آرثر توصل أخيرا الى معرفة الحقيقة، ولكن متى؟ بعد سنتين طويلتين من العذاب المرير... تمالكت نفسها وقالت:

«لم يبق ما أخبرك به. اظنك أدركت ان ليزا كانت على علاقة مشينة مع فينس كاين، وأنه تمكن من اغرائها فوافقت على رسمها شبه عارية، وأخذت تتردد عليه من أجل ذلك. في المرة الأخيرة وقبل مقتله بيوم واحد، نسيت عنده ساعتها، تلك الساعة الثمينة التي أهداها اياها كليف، وكان اسمها محفورا عليها. تملكها رعب شديد خشية ان يعثر احدهم عليها. لم يكن بوسعها ان تذهب بنفسها لاسترجاعها، لأن كليف كان يرغب في اصطحابها معه لموعد هام.

لذلك اضطرت ان تتصل بي هاتفيا ترجوني أن أذهب الى شقة فينس كاين، حيث ألتقي هناك بستيفان أسبي الذي كانت قد اتصلت به وطلبت منه أن يسلمني الساعة».

«يالتلك الخبيثة، كيف رتبت الأمور!»

ارتاحت كارين قليلا ثم تابعت:

«ذهبت تلبية لطلبها، فأخذت الساعة وقميص نوم لها كانت تحتفظ به في غرفة فينس، ولسوء الحظ وصل المصور الصحفي في تلك اللحظة فالتقط لي صورة وأنا أخرج مسرعة من هناك. وفي اليوم التالي كانت الصحف تنشر الصورة مع بعض التفاصيل عن مقتل فينس، وعن عشيقته الغامضة... يا الهي! ما كنت أحسب ان تلك الصورة ستنشر، وأن تراها انت، وتعتقد اني أنا تلك العشيقة الغامضة!»

صاح آرثر بصوت محموم:

«لكن لماذا لم تخبريني بكل ذلك؟»

«لأني وعدت ليزا، وجعلتني اعدها بألا أخبر احدا، رجتني، توسلت اليّ ألا اخبرك انت على وجه الخصوص. كانت تخاف...»

زمجر آرثر قائلا:

«ليزا تخاف! يا رب السماوات! أمن اجل تلك الكلبة الانانية التافهة تجعلينني أعتقد بأن زوجتي أنا... لماذا يا كارين تركتني أتعذب كل ذلك العذاب؟ لماذا يا كارين؟ كيف امكنك ان تخلصي لتلك الحقيرة أكثر من اخلاصك لي؟ أنا لا أفهم كل هذا».

اصفرّ لون كارين، لكن صوتها بدا هادئا عندما قالت:

«أنت لا تفهم؟ كنت على استعداد لأن تصدق كل شيء عني يا آرثر. عندما دخلت ذلك اليوم ثائرا تنظر اليّ بعينين يملؤهما الشك والغضب، ورحت تكيل لي الاتهامات جزافا، لم تصغ الى أي كلمة من كلماتي. لقد دمرت ثقتي بك، كنت أعتقد انك لا يمكن ان تشك بحبي واخلاصي تحت أي ظرف من الظروف، واذا بك تتهمني بأبشع التهم لمجرد صورة رأيتها في صحيفة. لم تصدق انكاري أية

علاقة لي مع فينس، لم تصدق انكاري أية صلة لي بستيفان. أقسمت لك بشرفي فلم تصدق، أكدت لك بأني لم أخنك في أي يوم من أيام حياتي، فلم تقتنع، عندها علمت أنك لم تكن تثق بي وبالتالي لا تحبني، أية فائدة أجنيها اذن من الفضيحة التي كنت سأثيرها حول اختك، وكشف سرّها الذي ائتمنتني عليه؟»

أنهت حديثها. . . وراحت الدموع تتساقط من عينيها لتغمر خديها الصفراوين، فمال آرثر اليها واحتضنها هامسا:

«لا تبكي يا كارين وحاولي ان تفهميني. لقد تعرضت للخيانة مرات كثيرة في حياتي. أحببت فتاة قبل ثلاث سنوات من لقائي بك، جعلتني اثق بها وبحبها واخلاصها. واذ بي اجد فجأة انها كانت طيلة الوقت عشيقة رجل آخر. بدأت اعتقد ان من المستحيل وجود تلك التي اتجرأ فأمنحها قلبي. قابلتك قبل فترة وجيزة من الزواج لم تكن كافية لتمحو من رأسي ما قاسيته من خيانة الآخرين. . . في ذلك اليوم، اليوم الذي شاهدت فيه صورتك كنت أريد ان انتقم. . . انتقم لكل ما أصابني من أذى ولحق بي من قسوة منذ ايام طفولتي، أنتقم لكل ذلك منك أنت! . . .»

أحست كارين بالعطف عليه، تذكرت ما قالته اليزابيت لها فوق الجسر، يوم أن قدمت الى دلرسيك لأول مرة، عن طفولته المعذبة وما قاساه من ألم ومرارة في حياته، وسمعته يقول بألم ظاهر:

«كارين، هل تصفحين عني، هل تغفرين لي عدم ثقتي بك وما سببته لك من أذى واساءة؟»

«لا تقل هذا يا آرثر! كان كابوسا وانقضى».

«نعم، انقضى يا حبيبتي، لا استطيع ان اصدق بأني استعدتك ثانية، وأني لست في حلم».

نظرت بعينين حالمتين الى وجهه المبلل بالدموع وقالت:

«انك لست في حلم يا حبيبي، لكن خبرني، هل لازلت تحبني؟»

لم يجبها بالكلمات، لكنه طوقها بشدة. وبعد قليل كان الحب

يرخي عليها عباءته الحريرية.

بعد ستة اشهر اقام آرثر وكارين حفلة خاصة اقتصرت على الاقرباء فقط. كانت ليزا هناك يرافقها كليفورد ومعهما طفلاهما التوأمان، وهما ابن وبنت. لكن الشيء الذي أسعد كارين كان اليزابيت، التي رجعت الى البيت امرأة متفتحة للحب والحياة، مع هيرلندنر زوجها! جلست سعيدة تتحدث عن بيتها الجديد في ألمانيا، مع الرجل الذي لم يبخل بشيء ليحقق لها امنيتها بالشفاء.

انفضت الحفلة، وطلبت اليزابيت محفظتها التي كانت قد تركتها في غرفة الطعام، دخلت كارين لتأتي بها وراحت تعيد النظر في اللوحة الثمينة التي كان آرثر قد علّقها هناك، اللوحة المثيرة . .

فاجأها صوت آرثر وهو يقول:

«هل لازالت تقلقك؟»

استدارت كارين قائلة:

«كلا يا حبيبي، انها لا تقلقني الا عندما أتذكر المبلغ الباهظ الذي دفعته ثمنا لها. آرثر، قل لي، لماذا اشتريتها؟»

«اشتريتها لاشعر دائما بالنعمة التي أعادتها الي، النعمة التي هي انت يا حبيبتي، وكذلك لأني أرى شيئا حبيسا في تلك اللوحة، أرجو الله ان يظل حبيسا هناك».

اتسعت عيناها من الدهشة لكلماته المبهمة، فقال موضحا:

«الجانب المعتم من زواجنا كاد ان يدمرنا، انه سجين في اللوحة».

تمتمت كارين قائلة:

«على اية حال، لا أحد يعرف صاحبة الصورة الا ليزا».

ضمها آرثر الى صدره وقال:

«لا تظني يا حبيبتي اني اشتريتها، لأني أكنّ لصاحبتها عاطفة هوى عميق في صدري».

ابتسمت كارين بحرارة قائلة:

«لن يخطر ذلك على بالي أبدا، لأني متأكدة الآن من العكس يا حبيبي».